

طرائق التربية

دراسة في آراء الإمام الخميني التربوية



السيد
مهدي الموسوي الكاشمري

عرّبها عن الفارسية
السيد حسن النمر
الصائغ الموسوي



دار الولاء
بيروت - لبنان



طرائق التربية

دراسة في آراء الإمام الخميني قدس سره التربوية

دراسات تربوية

١

طرائق التربية

دراسة في آراء الإمام الخميني قدس سره التربوية

بقلم

السيد مهدي الموسوي الكاشميري

عربها عن الفارسية

السيد حسن النمر "الصائغ الموسوي"

دار الولاء

بيروت _ لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

طرق وأدوات التربية

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمّد وآله الطاهرين، لا سيّما بقيّة الله في الأرضين، وبعد:

فباعتبار أن الله سبحانه هو ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1] فقد تولى بلطفه ورحمته تربية جميع الموجودات، وسلك بها جميعاً، على اختلاف طبائعها، نحو كمالاتها اللائقة بها، وأفاض على كلٍّ منها بحسب استعداده، ودعاها إليه ليصل كل منها إليه سبحانه كل بما يناسب حاله.

وقد عدّ تعالى (الإنسان) عصارة الوجود وخلاصة الموجودات فأشاد به بـ﴿كَرَّمْنَا... ﴾[2]. ومنّ عليه بأعلى درجات الاستعداد والاستيعاب، ووهبه قدرة واقتداراً لا يضاهى.

وحمّله - بعد ذلك - أمانة كبرى، أبت الجبال حملها، وأشفقت السماوات والأرضون من تحمل أعبائها، فتحملها هذا الموجود الـ(ظلوم) والـ(جهول) متلهفاً مشتاقاً[3]. فكانت الغاية من خلقه أن يبلغ كماله الإنساني

---

(١) سورة الفاتحة، الآية ٢.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾الإسراء، ٧٠.

(٣) قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾الأحزاب، ٧٢.

في ظل عبوديته لله عز وجل(١).

إن تميز هذا الإنسان يكمن في أن الله سبحانه منّ عليه أولاً بأن نفخ فيه من روحه(٢)، ثم امتحنه بأن جعل له سمعاً وبصراً، وجعل له إدارة نفسه ليختار الخير أو الشر، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان / ٢-٣].

وقد أتاح إن الله تعالى للشيطان فسحةً لاقتحام النظام التربوي لهذا الإنسان، بأن مكّنه من أن يوسوس له وأن يدعوه لشروره(٣). وفي المقابل واتر رسله إلى خلقه فكان النبي تلو النبي حمَلَة رسالة الله على أفضل وجه شكلاً ومضموناً، فالأدلة محكمة والمضامين سامية، والغايات نبيلة، والكتب ربانية، كل ذلك لغرض الدعوة إلى الله جل شأنه.

وكان خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله أفضلهم، وكتابه أكمل الكتب، وهو ما كان نصيبَ هذه الأمة، وأُعلن فيه أن الغاية من نزوله هي التربية والتعليم(٤)، والتي جعلت محوراً رئيساً للبعثة(٥).

كان رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ولا يزال كذلك، وقد تولى صلى الله عليه وآله تربية الأمة بمخزون الخلق الكريم لما جاء في حقه من شهادة ربانية بالقول ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم / ٨]، في ظل دوره الحيوي باعتباره ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾،

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات، ٥٦.

(٢) قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ الحجر، ٢٩، وص، ٧٢.

(٣) قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الإسراء، ٦٤.

(٤) قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الجمعة، ٢.

(٥) روي عنه صلى الله عليه وآله قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» الأخلاق للسيد عبد الله شبر، ص ٦.

فتبوأ مقاماً رفيعاً، فكان ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ و ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب / ٤٥-٤٦]، فكان الـ﴿ شَٰهِدًا ﴾[1] على حركة الأمة إلى لقاء الله ورضوانه.

وبعد أن اختار الله نبيه ﷺ إليه قام بالدور من بعده عترتُه الطاهرةُ المعصومةُ من الأئمة الطاهرين (سلام الله عليهم أجمعين)، فكانوا حملةَ رايتِهِ الخضراءِ الخفاقةِ. وقد دفعوا في سبيل ذلك ثمناً غالياً ونفيساً فتضرجت بدمائهم الطاهرة. ولم يتوان أولئك الأئمة الطاهرون عليهم السلام لحظة واحدة في تزويد البشرية المفتاقة والسالكة إلى الله بما تحتاجه في درب الحق والحقيقة، فرووهم من عذب ما يملكون ولم يتركوهم عرضةً لقطاع الطريق الظاهريين والباطنيين.

وفي عصر غيبة المعصوم عليه السلام حيث استترت شمس وجوده (عجل الله تعالى فرجه)، فإن أشعته لا تزال تخترق الحجب لتضيء الدرب للإنسانية، بل لجميع الممكنات، ليكون الأفق أمامهم مفتوحاً والسبيل متاحاً، وليكون هو الضياء في نفق مظلم وأفق معتم، وليستضيء الجميع، من خلال ما يوفقُ له العلماء الصادقون وعباد الله الصالحون من بينات وبصائر، ليكون هؤلاء تجلياً لذاك النور، من أجل أن تواصل أمةُ النبي الخاتم ﷺ، بثبات ووثوق، سيرَها في صراط التربية الإسلامية والصلاح المعنوي وحمايته من الآفات والشرور.

وموضوع البحث في هذا الكتاب - قارئي الكريم - هو طرائق التربية من منظور إسلامي، وهو أهم مباحث التربية الإسلامية ومحورها الأساس والعملي.

ولا بد من التذكير بأن مصطلح (طرائق التربية) قد يُراد به مسالك التربية

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٨.

ومذاهبها حيناً، وقد يُراد به الأدوات والوسائل التربوية التي يتوصل من خلالها إلى الأهداف التربوية في الفرد والمجتمع ، وما يعنينا هنا إنما هو المعنى الثاني ليس غير.

طرائق التربية

قامت المدارس والطرائق التربوية على اختلاف مشاربها بأدوار هامة على مستوى بناء البشرية و تطويرها، وكان لكلٍّ منها إسهامٌ جليلٌ ومشكورٌ في هذه الساحة المقدسة، وانتظمت تلك الجهود في المسالك التالية:

١ - المسلك الأخلاقي:

في هذا المسلك كان الجهد يتمحور حول البحث عن مفردات فضائل الأخلاق ورذائلها، وكيفية تحلي الناس بالفضائل وتخليهم عن الرذائل، وتفصيل محاسن تلك وقبائح هذه بالرجوع إلى الكتاب والسنة، وبخاصة تبعات هذه وتلك (سواء في ذلك ما كان ثواباً في الجنة أو عقاباً في النار) .

وبملاحظة انقسام مفردات كلا النوعين إلى الأحكام الفقهية الخمسة فقد امتزجت ببحوث الفقه، وعولجت فيه، من زاويتها العملية والتطبيقية، في حدود الفقه والمسائل الشرعية، ولم يولَ البعدُ النفسيُّ فيها الاهتمامَ الكافيَ، بل أشير إلى أنها مما يعفى عنه[1].

٢ - المسلك العرفاني:

في هذا المسلك لم يبذل الجهد لتناول المفردات واحدة بعد الأخرى، وإنما انصب وبشكل أساس على تصفية الباطن وقطع جذور رذائل الأخلاق

(١) فرائد الأصول، للشيخ الأنصاري ص ١٩٨ الطبعة الحجرية.

والصفات الذميمة، وتحقيق الفضائل الإنسانية عن طريق معرفة النفس والله والانقطاع الكامل عن غيره.

وقبل أن تُلاحَظ العواقبُ والتبعاتُ للكمال الإنساني، فقد تمحور الاهتمام فيها حول أصل هذا الكمال الذي هو المعرفة الحقيقية والواقعية للذات ولله تعالى ونحو مبدأ محبة مبدأ الوجود وعشقه.

٣- المسلك الفلسفي:

في هذا المسلك كان الهدف يتجه نحو محاربة رذائل الأخلاق وتحقيق الكرامة الإنسانية عن طريق الأدوات العقلية والتفكر في محاسن الأفعال ومساوئها، وعن طريق التركيز على أن الصفات الحسنة أمورٌ وجوديةٌ وأن لها آثاراً وجوديةً، بينما لا يتحلى شيءٌ من الصفات الذميمة بذلك، لا ذاتاً ولا أثراً، وعبر التأكيد على أن الوجود خيرٌ محضٌ وأن اللائق بالإنسان إنما هو السعيُ إلى الوجوديِّ دون العدميِّ، وأن كماله بقدر سعيه في ذلك.

٤- المسلك التجريبي:

في هذا المسلك، وهي طريقة حديثة ومستجدة روج لها علماء النفس ومسؤلو التربية والتعليم في العالم المعاصر، اعتمد - بشكل أساس - التأكيدَ على المنافع والمضار الفردية الجسمية وعلى الإخفاقات والنجاحات الاجتماعية على هذه وتلك، وتحظى الإحصائيات والرصد للواقع الإنساني على اهتمام فائق عند أصحاب هذا المسلك.

ولا يفوتنا الإشارة إلى ما يمكن أن نضيفه مسلكاً إلى تلك المسالك، وهو ما جاءت الإشارة إليه في بعض كلمات الإمام الخميني قدس سره، وهو (الدعاء)، حيث قال:

«إن كلَّ ما تطلبون وتنشدون موجودٌ في الأدعية. فطريقةُ الأدعية في بيان مراماتها تختلف عن طريقة بيان الأحكام الشرعية، وتختلف أيضاً عن الطريقة الفلسفية، كما أنها تختلف عن طريقة العرفان. إنها طريقةٌ فريدةٌ [بل إنها] أرقى من جميع تلك الطرق..»[١].

ويمكننا القول: إن طريقة الأدعية تحتوي على محاسن كل تلك الطرق والوسائل والمسالك، فإننا نجد في الدعاء، إلى جانب الآثار الأخروية من الثواب والعقاب المترتبة على الأخلاق والسلوك، نجد مبدأ المحبة والأنس بالله تعالى والتوجه نحو النفس والغفران الإلهي، ونجد تبيان محاسن الأفعال ومساوئها، وكذلك نجد بيان الآثار والتبعات الاجتماعية التي تستتبع ذلك في الحياة الدنيوية. وعلى هذا الأساس؛ فإن السالك إلى الله والساعي إلى الكمال سيشق طريقه إلى الفضائل باقتدار تام مبتعداً عن كل رذيلة تزري به.

هذا مضافاً إلى أن الدعاء، بما فيه من تحرُّقٍ وتولُّهٍ بين يدي الله سبحانه، هو - في حقيقته - تمرينٌ وممارسةٌ وجهدٌ لتجسيد معطيات العقل النظري ومدركاته في قلب الداعي، وهذا مختلِفٌ عما نجده في العرفان النظري نفسه.

ويصح لنا أن نسمي مسلك الدعاء بـ(المنهج الإسلامي)، وهو المنهج الذي تبلور من خلال الأدعية المأثورة عن المعصومين عليهم السلام. وعليه، فيمكننا القول إن المنهج التربوي الإسلامي هو مزيجٌ من جميع المسالك والطرائق، ولكن ليس بنحو لا يتيسر فيه التجزئة والابتسار والانتقاء، وإنما هو منهجٌ مستقلٌّ يجمع محاسن تلكم الطرائق ويمتاز عنها برز في الدعاء وتحقق من خلاله.

---

(١) صحيفة النور [بالفارسية]، ج ١٩، ص ٢١١.

طرق التربية وأدواتها

نريد بهذا العنوان الوسائل والطرق التي يتمكن الشخص بالاستفادة منها أن يتحلى على مستوى ذاته، وأن يساعد الآخرين على التحلي بفضائل الأخلاق والإذعان للمعارف الحقة والتسليم بمضامينها، وأن يعمق هذا وذاك في روحه وبين جنبيه، وأن يمحو عن نفسه ويعين غيره على محو الرذائل والصفات الذميمة.

إن بحث طرق التربية وأدواتها يعد من أهم المباحث، في ما نحن بصدد معالجته، عند جميع المدارس والمسالك وقد حظي باهتمام الباحثين على اختلاف توجهاتهم وانتماءاتهم، كما أن مصادر الثقافة الإسلامية آيات وروايات ونصوص قد جعلته في صدر اهتماماتها وأولته عناية خاصة ومتميزة.

ونحن خلال هذا البحث سنشير، مضافاً إلى الآيات وروايات المعصومين رسول الله وآله (صلوات الله عليهم)، إلى نظريات وآراء الإمام الخميني قدس سره، التي ذكرها في مواضع من كلماته وبياناته وكتبه، على أساس أنه - في ما نعتقد - أفضل المربين في العصر الحاضر وأكثرهم اقتداراً على تشخيص الداء والدواء معاً.

وبالجزم فإن ما طُرح من بحوث، حول طرائق التربية، في هذا الكتاب لا يحوي جميع ما يرتبط بموضوع البحث، فلعل هناك أموراً لم نشر إليها ولم نتعرض لها، نرجو التوفيق لتناولها في طبعات لاحقة.

ونرى لزاماً علينا التأكيد على أن مادة هذا الكتاب الأساسية كان في الأصل بحثاً قُدِّم للمشاركة في مؤتمر (دراسة فكر الإمام الخميني قدس سره وآثاره

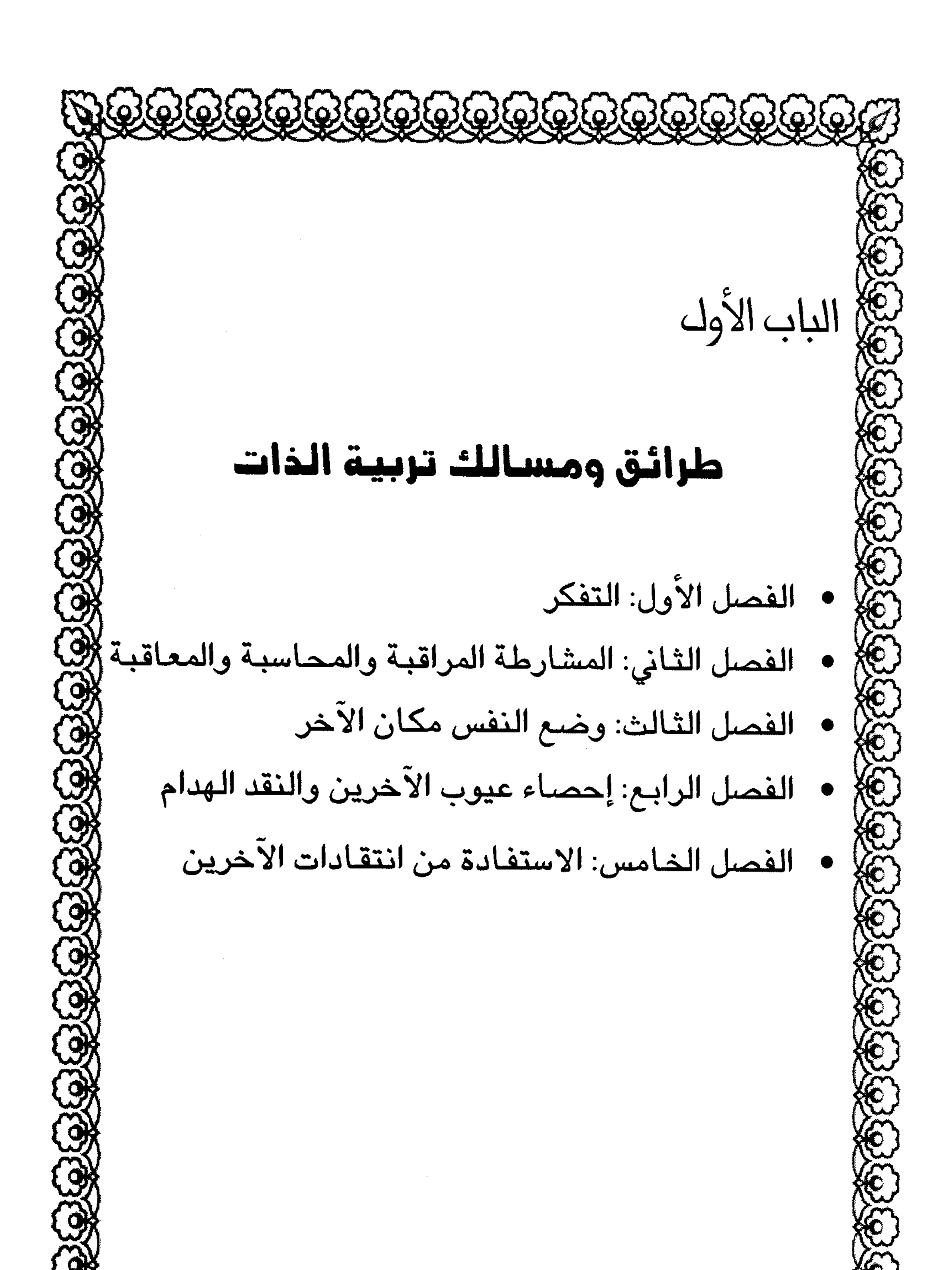
التربوية)، والذي انعقد في شهر خرداد من العام ١٣٧٣ الهجري الشمسي، بمبادرة من مؤسسة تنظيم ونشر أعمال الإمام الخميني قدس سره وبعض المؤسسات الجامعية في طهران. ونشر ضمن مجموعة بحوث المؤتمر. ثم أعيد النظر فيه وأضيف إليه بحوث أساسية، ونشر على حلقات في مجلة (بيام زن) [رسالة المرأة] ، ثم أعيد النظر فيه أيضاً، إصلاحاً وتقويماً، وها هو في صورته النهائية بين يديك قارئي الكريم.

وإن العبد راقم هذه السطور ليسأل الله تعالى، وهو أحد المخاطبين بهذا الكتاب، أن يعمل بما جاء فيه. ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم.

١٤ / ١ / ١٣٧٨ هجري/شمسي

قم – سيد مهدي موسوي

* * *



الباب الأول

طرائق ومسالك تربية الذات

- الفصل الأول: التفكر
- الفصل الثاني: المشارطة المراقبة والمحاسبة والمعاقبة
- الفصل الثالث: وضع النفس مكان الآخر
- الفصل الرابع: إحصاء عيوب الآخرين والنقد الهدام
- الفصل الخامس: الاستفادة من انتقادات الآخرين



الفصل الأول

التفكر

قيمة الفكر ومنزلته

عرّف اللغويون (الفكر) بأنه: إعمالُ العقل والنظر واستعمال الذهن[١].

وعليه، فإن الفارق بين النوع الإنساني وسائر الحيوانات إنما هو (العقل) و (الفكر)، الذي هو استعمال قوى العقل، وهذا في حد ذاته يشكل، في واقع الأمر، حداً فاصلاً بين نوعين وطائفتين من الناس:

الأولى: المفكرون

الثانية: المهملون لتلك العطية الإلهية والمنحة الربانية، والمعطلون لها.

فئات المفكرين

المفكرون: وهم الطائفة الأولى، بدورهم، ينقسمون إلى فئتين:

الفئة الأولى: أولئك الذين يُعمِلون عقولَهم بالأسلوب الصائب والمنهج السليم وفي الاتجاه الصحيح متجنبين أن يكون شيءٌ من ذلك في الباطل.

الفئة الثانية: أولئك الذين سخَّروا تلك الأدوات الكريمة في سبيل تحقيق غاياتهم الشيطانية.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، وغيره مادة (فكر).

إن قوة العقل إن استعملت بالطريقة الطبيعية وعلى أساس الفطرة الإنسانية، دون أن يشوبها دوافعُ أو عواملُ أنانيةٌ وشيطانيةٌ، فإن نتيجة ذلك ستكون طيبةً وبناءةً، وستأخذ بيد صاحبها نحو (الرحمن).

وأما إذا سلط عليها قوة (الوهم) لتتحكم فيها وتقودها فإن العاقبة ستكون وخيمةً ومُرّةً ومخرِّبةً. وفي هذه الصورة سيكون العقل أداة طيعة للشيطان، لتسخر ضد ما خُلقت من أجله، ولذلك فمتى ما وجدنا عناوين من قبيل (أهل الفكر) أو (المفكِرين) ونحوهما، فإن المراد بذلك هو الفئة الأولى دون الثانية، وأما استعمالها في الأخيرة، أعني الفئة الثانية، فلا بد فيه من القرينة.

وقد فتح القرآن الكريم الباب واسعاً وعلى مصراعيه أمام (منزلة الفكر وقيمته) وذلك من خلال مصطلحات من قبيل: (التفكر)، و (التدبر)، و (التعقل)، و (التفقه)، وذلك في العشرات من الآيات، داعياً فيها إلى التأمل في آيات الله، سواء التكويني منها أو التشريعي، ومعلقاً الاهتداء بها على الاعتبار[1].

وهكذا الروايات عن المعصومين عليهم السلام التي جعلت للتفكر منزلةً سامية في أفق التربية والتعليم الإسلاميين، واعتمدت في ذلك أساليب متنوعة.

فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: « **... ألا.. لا خير في قراءة [أي للقرآن] ليس فيها تدبرٌ! ألا.. لا خير في عبادة ليس فيها تفكرٌ**»[2].

كما أنه عليه السلام بيّن أن التفكر يدعو الإنسان إلى الخيرات والفضائل

(١) انظر: سورة آل عمران الآية ١٩١، وسورة يونس الآية ٢٤، وسورة النحل الآية ٤٤، وغيرها.

(٢) أصول الكافي، كتاب العلم، باب صفة العلماء، الحديث ٣.

والسعادة[١]. وسنشير إلى نماذج من ذلك في ثنايا مطاوي بحثنا.

إنِ ذهن الإنسان وفكره لو بقي خاملاً وراكداً فسيفنى شيئاً فشيئاً، وأما لو أُعمل واستعمل في الطريق العقلاني والسليم فسينمو وتتفجر طاقاته الخلاقة بما يجعله معطاءً، وهو بدوره قادرٌ على الأخذ بيد هذا الإنسان إلى أعلى المقامات المعنوية وإيصاله إلى أسمى الكمالات الإنسانية، ولو استعمل في طريق الفساد فلن يجني صاحبُهُ سوى الخسران المبين، ليكون في مرتبة أسفل سافلين. وكلتا النتيجتين من خصائص النوع الإنساني التي يصل إليها عبر إعماله لقوة الفكر في هذا الاتجاه أو ذاك.

فالمهم – إذن – توجيهُ الفكرِ نحو الاتجاه السليم والمسار الصحيح، لأن الفكر المنطقي والسليم وحده القادرُ على الدفع بهذا الإنسان نحو المعالي والسمو، وهو ما صنع الحضارات وتقدم بالأمم والمجتمع الإنساني في شتى الحقول وعلى مختلف الأصعدة.

كما أن جميع الخسائر وأشكال التخلف التي تحيط بالعالم المعاصرِ إنما هي نتيجةٌ طبيعيةٌ للأفكار المغلوطة والطرائق المعوجة التي تبناها المنظِّرون والمفكرون ممن وقفوا أنفسهم على خدمة الأهواء ووضعوا أنفسهم في تصرف أصحاب الثروة والسلطة المنحرفين.

* * *

(١) كتاب الإيمان والكفر، باب التفكر، الحديث ٥. ونصه: [إن] التفكر يدعو إلى البر والعمل به.

الآفاق الصحيحة للتفكير

يتساءل كثيرٌ من الشباب قائلين: كيف يمكن توجيه الفكر؟ وكيف يمكن جعلُهُ في صراطٍ مستقيم وسويّ؟ ومن حيث المبدأ في ماذا يجب أن نفكر؟ وإذا كانت آفاق التفكير وساحاته متعددة فمن أي نقطة نبدأ؟

وقد سُئِل الأئمةُ الطاهرون هذا السؤال من قبل.

فمثلاً سأل الحسن بن صيقل الإمام الصادق عليه السلام مدى صحة ما يقوله الناس من أن تفكر ساعة خير من عبادة، وكيف يكون هذا التفكر؟ فأجابه الإمام عليه السلام بأن بيّن له في مجالات التفكير الصحيح[1].

وهذه المجالات والساحات والآفاق كثيرةٌ نستعرض، هنا، أهمَّها، موضحين إجمالاً بعضَ جوانبها.

أ- النفس

إن النفسَ الإنسانية جوهرةٌ ثمينةٌ، منسوبةً بكل افتخار إلى الحق تعالى، وهي إلى ذلك أساس كرامة الإنسان ومحل تفضيله.

وقد فتح الله سبحانه للناس كتابين عظيمين وخزانتين مملوءتين، فدعاهم إلى النظر والتدبر فيهما، أحدهما: الطبيعة والكون، والآخر: نفوس الناس أنفسهم، فقال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [السجدة / ٥٣].

ووفقاً لما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام - في مقام التفاضل بين معرفة (الكون

(١) ونص الرواية كالتالي:
سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عما يروي الناس أن تفكر ساعة خير من قيام ليلة، قلت: كيف يتفكر؟ قال: يمر بالخربة أو بالدار، فيقول: أين ساكنوك، أين بانوك، ما [با] لك لا تتكلمين. أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب التفكر، الحديث ٢.

والطبيعة) ومعرفة (النفس) - فـ«**معرفةُ النفس أنفعُ المعرِفتين**»[١].

إن معرفة النفس من أشد المعارف ضرورةً ولزوماً، ولذلك عُدّت معرفةُ النفس والتفكرُ فيها مقدمةً على سائر المعارف. ولهذا أسبابٌ ومبرراتٌ عدةٌ، أهمُّها أن هذه المعرفة تشكل - في الحقيقة - الباب للمعارف الأخرى. فمن لم يعرف نفسه لن يعرف ما عداه، ولن يقف هذا الحرمان عند حدّ المعارف العادية بل سيكون من نصيب (معرفة الله) أيضاً، فقد روي في الحديث أن معرفة الله إنما تكون من خلال معرفة النفس، وفي نص لأمير المؤمنين عليه السلام تساءل: «**كيف يعرف ربه من يجهل معرفة نفسه**»[٢].

وإن الجهل بالنفس، من أكثر الأمراض والابتلاءات شيوعاً بالنسبة للإنسان في عالمنا الم

عاصر. وهذا ما شكل بنيةً تحتيةً وأساساً لكثير من الأزمات الروحية والعقد النفسية.

لقد سخَّر إنسانُ العصر الطبيعي لنفسه، ولكنه عاجزٌ ومتخلِّفٌ عن تسخير نفسه. بل إنه اليوم غريبٌ عن ذاته ويزداد غربةً يوماً بعد يوم، والسرّ في هذه الغربة بيّنه أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام بقوله: «**فمن شغَل نفَسَهُ بغير نفسه تحيّر في الظلمات، وارتبك في الهلكات، ومدّت به شياطينُهُ في طغيانه، وزيَّنت له سيءَ أعماله . . .**»[٣]. فمولى المتقين علي عليه السلام يرى أن التركيز والانتباه المستمر للإنسان إلى غير نفسه سببٌ للغفلة ومن ثم يشكلها أساساً لكل بلاءٍ وضياعٍ وضلالٍ.

(١) غرر الحكم.

(٢) م ن.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

وقد يقول قائل : كيف يُدَّعى أن معرفة النفس هي طريق إلى معرفة الغير؟ ولماذا لا يكون ميسوراً معرفة حقائق الكون بغير ذلك ؟ مع أننا نرى نماذج بشرية كثيرة لم تحظ بنصيب من (معرفة النفس) وقد قطعت مشواراً طويلاً في طريق (العلم) ونالت سهماً وافراً من ذلك.

ونجيب بالقول : فرق كبير بين (العلم) و (المعرفة)، فالعلم هو الاطلاع بينما المعرفة تعني الوعي، والعلم يراد به : المعلومة، بينما يراد بالمعرفة : الحقيقة. والعلم يستعمل في مقام نيل الإنسان للظواهر (جمع ظاهرة) والعلاقات في ما بينها، في حين أن المعرفة تستعمل في مقام بلوغ حقائق تلك الظواهر والعلاقات القائمة بينها. ومن هنا، نجد أن الإمام علياً عليه السلام ذكر في ما تقدم نقله قوله: «... **لا خير في علمٍ ليس فيه تفهُّمٌ** ...»[1].

ويستفاد من هذا الحديث بجلاء أن من الممكن أن يكون الإنسان ذا علم، ولكنه ليس فهيماً ولا فطِناً، والحقيقة أن العلم يشكل أساساً للمعرفة والفهم وليس نفسَها.

ورد في الروايات مصطلح الـ(نفس) كثيراً، وقرن به في موارد كثيرة مصطلح الـ(معرفة) ومشتقاتها، دون كلمة الـ(علم) ومشتقاتها. والثمرة التي ذكرت لـ(معرفةِ النفس) هي (معرفةُ الله) وسائر الموجودات لا الـ(علم) بها.

إن الإنسان المعاصر اليوم، وإن تمكن من ناصية الطبيعة إلى حدٍّ كبيرٍ، غير أنه لا يزال بعيداً كل البعد عن إدراك حقيقتها بل هو عاجزٌ عنها. فالطبيعةُ، إلى جانب ما لها من الظاهر، لها باطن هو حقيقتها، وذاك هو بُعدُ الـ"ربط" والـ"فقر" فيه بالنسبة إلى مبدأ الوجود، والإنسان الجاهل بنفسه عاجز عن درك تلك الحقيقة. وهذا العجز هو الذي تسبب له في الخسائر التي لا عدّ لها

---

(١) أصول الكافي، كتاب العلم، باب صفة العلماء، الحديث ٤.

ولا حصر وسلبه فوائد جمة منافع جليلة، وأي خسارة تسبب فيها هذا الجهل وأي شيء أشد ضرراً منه؟! قال أمير المؤمنين عليه السلام في حديث له: «**أعظمُ الجهل جهلُ الإنسان أمرَ نفسِهِ**»[1].

ولعل هذا لما يتسبب فيه الجهل من جهالات كثيرة. في حين أن العارف بنفسه واقفٌ على أصالته وشرف نفسه، ولأنه يتفكر ويتأمل باستمرار ونظام في جوانب روحه الخفية ليكتشف ثَمَّة قدراته وشخصيته، ويتعرف أيضاً إلى نقاط ضعفه وقوته ويشعر بكل ذلك بكل جزء منه.

وإذا تمت له تلك المعرفة، واستحكمت في وجوده ووجدانه إثر مراقبته وتأكيد تثبيتها، فسيتلاشى فيه شيئاً فشيئاً (حب الذات) و (الأنانية)، اللذان هما الحجابان الغليظان لمعرفة النفس، وعندئذٍ تشرق شمس الحقائق في قلبه أو عليه، وسيكون قادراً على التعرف على الظواهر والحوادث والدوافع النفسانية والموجودات الأخرى بواقعية وموضوعية ومنطقية، لا كما تمليه عليه العواطف والأحاسيس والدوافع النفسانية المصحوبة بالأوهام وما ينشأ عنها من خيالات. فهم أشخاص أصبحوا يمتلكون عيناً برزخيةً، وهم، نتيجة كمال معرفتهم بأنفسهم وخالقهم، يرون - في كل ما يشاهدون - باطنه إلى جانب ظاهره، ويعرفون الناس على ما هم عليه لا كما يبدونَ أو يظهرون أنفسهم للناس.

هذا في الوقت الذي نعرف فيه أن أكثر العلماء في التخصصات المختلفة عاجزون عن درك حقائق الأشياء، ولا يملكون سوى معرفة سطحية بها، وسنشير إلى ذلك لاحقاً.

---

(١) غرر الحكم.

طريقة التفكر في النفس

من الموضوعات الأساسية والهامة في قضية التربية، وبالخصوص (مسألة معرفة النفس)، ما نسميه بـ(طريق التفكر في النفس) وفي هذا السبيل لابد من التحرك للقيام بخطوتين أساسيتين:

الأولى: ضبط النفس

الثانية: البحث والدراسة المعمقة لأحوال الغير وأوصافهم

أما الخطوة الأولى أعني (ضبط النفس) فإن الأفضل هو أن يركز الإنسان، في الليل وقبل أن ينام ولمدة نصف ساعة، فكره في نفسه. وذلك بأن يسعى إلى أن تكون جميع حواسه ومشاعره وتفكيره باتجاه نفسه، مبعِداً عنه كلَّ خيالٍ أو متخيل لأي شيء، ويطرده بمجرد أن يشعر به في سويداء قلبه، يستمر على ذلك إلى يشعر بأن صفاء ذهنه وحضوره التام بالنسبة إلى نفسه.

وهذه الطريقة، وإن كان من الممكن أن تكون صعبة بعض الشيء، وهي كذلك، إلا أنها ستكون إلى اليسر والسهولة أقرب كلما استمر التدرب عليها، إلى أن تصل إلى أن تصل إلى عمل اعتيادي يُؤدَّى بدون تكلف ولا تمحل.

وبعد استعمال هذه الطريقة في ضبط النفس، وتحقق نتائجها الإيجابية وضبط النفس، من خلالها، يأتي دور الخطوة الثانية، وهي: التأمل والتفحص في أحوال أناس وصفاتهم، محاسن ومساوئ، وهو ما يشكل في حقيقته الأساس لكل إصلاح وتكامل، ويعد قاعدة لجميع أشكال التربية.

وفي هذا الصدد قال الإمام علي عليه السلام: «**فحاسب نفسك لنفسك،**

فإن غيرها من الأنفس لها حسيبٌ غيرك»[١].

وأما الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّه، وهو التلميذ النجيب لمدرسة علي عليه السلام التربوية وأحد خريجيها، فيقول:

«... حينما تخلو بنفسك ليلاً وتتفرغ لها، فكِّر في قلبك هل هو قلبٌ نورانيٌّ متجهٌ إلى النور؟ أم أنه قلبٌ ظلمانيٌّ متوجهٌ إلى الآمال الشيطانية؟»[٢].

أ - الطبيعة

أمر القرآن الكريم، في آيات كثيرة، بالتدبر والتفكر في الطبيعة والكون. سواء كان بلسان الدعوة إلى التفكر في عالم الخلق أجمع، أو كان بلسان الدعوة إلى التفكر في أجزائه ومفرداته وتفاصيله، كالنحل، والجمال، والجبال، والأنهار، والأشجار، والفواكه والثمار، والأمطار، والشمس، والقمر، والنوم، وغير ذلك[٣].

وعالم الخلقة مدهشٌ ومحيِّرٌ إلى الحد الذي لا يستطع الإنسان العادي أن يدعي أنه وقف على أسراره. وما تبين لنا من أسراره إلى الآن، مقابل ما نجهله منها، لا يشكل أزيد من قطرة أمام محيط لا ساحل له وطبقاً لما جاء في القرآن الكريم من حقيقة فإن عدد مخلوقات الله وأسراره غير متناه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[٤].

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٢.

(٢) صحيفة النور [بالفارسية]، ج ١٢، ص ١٢٤.

(٣) انظر: سورة آل عمران، الآية ١٩١، وسورة الرعد، الآية ٣، وسورة النحل، الآيات ١٠-١١، ٦٩، وسورة الغاشية، الآيات ١٧-٢٠، وسورة النبأ، الآيات ٦-١٦.

(٤) سورة الكهف، الآية ١٠٩. وانظر: لقمان الآية ٢٧.

وكما أشرنا فإن لعالم الطبيعة صورتين ووجهين:

أحدهما: مُلك، هو عالم الظاهر.

وآخر: ملكوتٌ، هو عالم الباطن. وحقيقته أنه: بُعد الربط والانتساب إلى مبدأ الخلقة.

والتفكّر في عالم الطبيعة يتناول الوجهين معاً، وكلاهما يحقّقان للإنسان معطيات هامةً، أحدهما يسخِّر له عالم الطبيعة أكثر فأكثر، مما يصب في اتجاه الاستفادةً منها علمياً بنحو أرقى وأعلى وأشد سلاسة وسهولة، والآخر يفتح له باب ملكوت العالم.

وإن كثيراً من العلماء والباحثين وقفوا واقتصروا في علومهم وتحقيقاتهم على عالم المُلك، ولم يتجاوزوه، بحثاً وفحصاً وتحقيقاً. وفي نظر هذا الفريق فإن عالم الخلقة والطبيعة ليس إلا هذا الظاهر وليس بعده شيء !! ومن ثَمَّ وصفهم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم / ٧].

بل إن هؤلاء حتى لو هُدوا إلى ذاك العالم ودلوا على تلكم الحقائق فإنهم يديرون ظهورهم لها، وفي ذلك يقول الله تعالى :﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾[الأعراف / ١٤٦].

بينما يستفاد من آيات القرآن أن التفكر الصحيح في ظواهر الكون وموجودات الطبيعة يهدي الإنسان قهراً إلى عالم الملكوت، وذلك نتيجة للارتباط الوثيق والاتصال الأكيد بين عالمي المُلك والملكوت.

وكنموذج على ذلك نورد قوله تعالى :﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا

وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران / ١٩١]. فقد بيَّنت الآيةُ الشريفةُ - بوضوح تامٍّ - عمقَ الارتباط بين التفكر في الخلق من جهة والوصول إلى حقيقة هذا العالم الكوني من جهة أخرى.

وفي هذا الصدد يقول الإمام الخميني قدس سره:

«لو تدبرت في خلق السماوات والأرضين وفي صنوف ملائكة السماء والأرض وصفوف جنود الله وفرقهم لانكشف لك وأذعنت... بحقيقة نفوذ المشيئة الإلهية وحتميته وشمولها»[1].

وفي حديث مرويٍّ عن إمامنا الصادق عليه السلام، قال: «**أفضل العبادة إدمانُ التفكر في الله وفي قدرته**»[2].

ب - الموت

ما من شك في أن أشد المواعظ تأثيراً في النفوس وأبلغ حوادث الحياة في الموعظة والتنبيه لهو (الموت). وإن التوجه إليه ليدفع بالنفوس المستعدة والقلوب الحية إلى اليقظة من نوم الغفلة، ويقوِّض قصور الأوهام المتخيَّلة والآمال الكاذبة على رؤوس أصحابها، ويجتث جذور الغرور والكبرياء من أعماق النفس الإنسانية.

إن كثيراً ممن يخافون الموت إنما يخافونه لأنهم يعدونه، في ما يزعمون، فناءً وعدماً وانقطاعاً عن علائقهم الدنيوية، في حين أن الموت ليس كذلك، وإنما هو كمال لهذه الحياة وانتقال من محطة منها إلى محطة أخرى.

---

(١) شرح دعاء السحر ص ١٨٧.

(٢) وسائل الشيعة، أبواب جهاد النفس، الباب الخامس، الحديث ١.

إن الروح التي لم تتلوَّث لتأنس - بعد الموت - بحياتها الجديدة، وستحظى بما لا يقاس، سمواً ومنزلةً، بما كانت تحظى في عالم الدنيا من مواهب وعطايا، بحيث إنها لا تتمنى العودة إلى عالم الدنيا أبداً إلا للقيام بعمل صالح، قال الله تعالى في كتابه الكريم مخاطباً اليهود: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة / ٦-٧].

وفي الآية الثانية احتمالان:

أولهما: أن اليهود، نتيجة ظلمهم ومعاصيهم التي صدرت منهم، وخوفهم من عواقب ما فعلوا بعد الموت، يكرهون الموت ويفرون منه.

ثانيهما: ولعله أنسب بالآية: أنهم، إثر انغماسهم في اللذائذ وانغماسهم في المحرمات وعبادة الذات، تأصَّل فيهم محبة الدنيا وعشقها، وعشق كل ما فيها من علائق الإثم الدونية، حتى أصبحت حياتهم الحيوانية محبوبهم ومطلوبهم بديلاً عن الله تعالى ولقائه. ولذلك فهم يكرهون الموت ويفرون منه وينغمسون ما استطاعوا في لذائذ الدنيا ومتعها.

كما أن الانغماس في لذائذ الجسد تحول بين الإنسان وبين الالتفات والتفكير في ما بعد الموت، كذلك العكس، وذلك أن التفكر في حوادث الكون والدنيا، الذي هو طبيعيٌّ وهامٌّ في حياة البشر، هو أيضاً يقطع عبادة المادة ومتابعة الهوى، ويحفظه عن المبالغة في الاهتمام بظواهر عالم الدنيا والطبيعة وزخرف الحياة وزبرجها، لتكون نتيجة ذلك أن تُتاح له فرصة أكبر للاهتمام بالمسائل الأساسية والأصلية للحياة والتوجه نحو الكمالات المعنوية والإنسان.

قال البراء بن عازب: كنا مع رسول الله ﷺ فرأى جنازة تشيع فأسرع

إليها وبكى بكاءً حاراً حتى اخضلت لحيته،ثم خاطبنا قائلاً: «**لمثل هذا ينبغي العمل وخافوا عاقبته واعملوا الصالحات له**»(١).

وقال علي عليه السلام: «**تجهزوا رحمكم الله؛ فقد نودي فيكم بالرحيل...**»(٢).

وفي ذلك يقول الإمام الخميني قدس سره:

«**فكِّروا في هذا المطلب، وهو أن قضية الموت قريبة، وأن أحداً لم يضمن لكم عمراً يصل إلى مائة وعشرين سنة... هذبوا أخلاقكم ووفقوا بين أعمالكم وأحكام الشريعة... لابد لكم في ذلك من تمرين ورياضة. حاكموا أنفسكم، عليكم أن تراقبوا وسيوفقكم الله إن شاء الله**»(٣).

وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: « **أعمار أمتي بين الستين إلى السبعي**»(٤). وبالطبع، فإن لهذا التعبير طابعُ التغليب، وليس بصدد بيان القانون الحتمي، فلا ينافي ذلك ما نشاهده من الزيادة عن ذلك والنقيصة.

ج - التاريخ

يعدّ التاريخ وحوادث الماضين من المصادر الهامة للتفكر والمعرفة الإنسانية، فالتاريخ يبيِّن ويوضح سنن الله في المجتمعات البشرية، وهو أصدق مخبر عن الحقائق الواقعة والقوانين الحكمة على مسير الحياة البشرية.

والتاريخ في واقع الأمر هو انتقال تجارب حياة الماضين للمعاصرين وأبناء المستقبل، يبين سر انتصاراتهم وهزائمهم، ويشرح موجبات تقدمهم

---

(١) إرشاد القلوب، للديلمي، ص ٦٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٤.

(٣) كوثر، خلاصة خطب الإمام الخميني [بالفارسية] ج ١، ص ٣٦.

(٤) إرشاد القلوب، ص ٤٠.

وتخلفهم، ويكشف عوامل نهوض الحضارات وانهياراتها، ويعرّف عاقبة الصالحين والطالحين ومآل طلاب العدالة والظالمين.

إن ما يحصل عليه الإنسان من مطالعة صفحات التاريخ أن يفهم حقيقة سنن الله تعالى في واقع البشر حاضراً ومستقبلا. وبالطبع، فإن مثل هذه النتيجة إنما تتحقق إذا اعتقدنا جزماً بعدم إمكانية تغيير تلك السنن والقوانين الحاكمة على مسار البشرية وأنها أبدية وخالدة.

والقرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة، وعلى هذا الأساس يجعل من تلك الحوادث التاريخية عبرةً للآتين، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

ودراسة التاريخ يمكن أن تتم بأحد شكلين:

أولهما: أن يُدرس لمجرد الاطلاع على أحوال الماضين.

ثانيهما: أن يُدرس على أساس التحقيق وبدافع كشف السن الإلهية والاعتبار من مصير الماضين.

وفي الشكل الثاني فبمقدار ما يتمكن الدارس للتاريخ من التناغم والتقمص لوقائع الماضي، فسيحالفه التوفيق للاقتراب من أهدافه أكثر فأكثر. وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أي بني! إنّي وإن لم أكن عمّرتُ عمر من كان قبلي فقد نظرتُ في أعمالهم، وفكّرتُ في أخبارهم، وسرتُ في آثارهم، حتّى عدتُ كأحدهم، بل كأنّي بما انتهى إليّ من أمورهم، قد عمّرتُ مع أوّلهم إلى آخرهم، فعرفتُ صفوَ ذلك من كدره، ونفعَهُ من ضرره؛ فاستخلصت لك من كلّ أمر نخيلَهُ، وتوخّيت لك جميلَهُ، وصرفت عنك مجهولَهُ**»[2].

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٣. وانظر الرعد، الآية ١١.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١.

وفي ما يرجع إلى الاعتبار من حوادث التاريخ فإن القرآن الكريم أكد، وفي مواضع عديدة، على ذلك. وكنموذج على ذلك نورد بعض ما ينبغي الوقوف عنده والتأمل فيه:

١ - قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم / ٩].

٢ - قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ [الروم / ٤٢].

وفي موارد أخرى أشير إلى هذا الأمر من خلال الاعتبار من عاقبة (المكذّبين)[١]، و(المفسدين)[٢]، و(المجرمين)[٣]، و(الظالمين)[٤]، و(المنذَرين[٥]. وفي هذه الآيات لوحظ دراسة التاريخ والتأمل باعتباره عملاً هادفاً.

٣ - قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف / ١١١].

وفي وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام أيضاً يوصيه بالتالي: **« واعرض عليه أخبار الماضين، وذكِّره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، في ديارهم وآثارهم. فانظر ماذا فعلوا وعما انتقلوا، وأين حلوا**

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٧، والأنعام، الآية: ١١.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان ٨٦، ١٠٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٨٤.

(٤) سورة يونس، الآية ٣٩.

(٥) سورة يونس، الآية ٧٣.

ونـزلوا»[١].

ويقول الإمام الخميني قدّس سرّه في هذا الصدد:

«كم بقي من عمري وعمرك؟ كم تريد أن تبلغ من العمر؟ هل سيكون المنصب الذي تطمح إليه أعلى من منصب رضا خان ومحمّد رضا خان؟ اعتبر ! اعتبر من حوادث التاريخ ! فالتاريخ معلم الإنسان! تعلم من هذه الحوادث التي تقع في الدنيا»[٢].

د - أحوال الناس

دراسة أحوال الناس على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية وانتماءاتهم المتعددة، ومن مختلف زواياها وجوانبها، تعتبر مادة دسمة وميداناً واسعاً للوصول إلى حقائق ومعارف إنسانية هامة.

إن التاريخ، وإن كان هو دراسةً لأحوال الماضين، إلا أن المقصود من دراسته هنا هو التحقيق والتفحّص والتأمل لسبر الأحوال النفسية والاجتماعية لمجتمعاتنا المعاصرة وفئاته.

والفرق بين هذا العمل وبين البحث عن معايب الناس والتجسس المذموم أن الهدف من دراسة التاريخ والتأمل فيه إنما هو التعرف على الأساليب المتنوعة في طرائق المعيشة وكيفية التعامل مع المشاكل الروحية والأزمات النفسية للمجتمعات البشرية، وصولاً إلى تخير أفضل الطرق للتخلق والآداب الاجتماعية وفنون الحياة. أما الهدف والغاية من معرفة معايب الناس فهو تدمير الآخرين تحقيقاً لغايات دنيئة وإرضاءً لميول نفسية

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١.

(٢) صحيفة النور [بالفارسية] ج ١٥، ص ٢٩. وكوثر ج ٢، ص ٣٤١.

منحرفة، مما ينشأ من عبادة الذات والأنانية.

وكنموذج على ذلك يمكن أن نذكر ما أشار إليه في وصية الإمام علي عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام بقوله: «**وإياك أن تغتر بما ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها، وتكالبهم عليها. فقد نبأك الله عنها، ونعَتْ هي لك عن نفسها، وتكشَّفت لك عن مساويها، فإنما أهلها كلابٌ عاويةٌ وسباعٌ ضاريةٌ، يهرُّ بعضها على بعض، ويأكل عزيزُها ذليلَها، ويقهر كبيرُها صغيرَها..**»[1].

إلى أن يقول:

«**سلكت بهم الدنيا طريق العمى، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى، فتاهوا في حيرتها، وغرقوا في نعمتها، واتخذوها رباً فلعبت بهم، ولعبوا بها، ونسوا ما وراءها**»[2].

ويقول الإمام الخميني قدس سره في هذا الصدد:

«**بني ! إن إقبال الدنيا وإدبارها وحوادثها كل ذلك يسير بسرعة فائقة، وإن عجلة الزمن ستطحننا جميعاً. وإني بعد دراستي وملاحظتي لأحوال الناس، على اختلاف شرائحهم، توصلتُ إلى أن الآلام الباطنية والنفسية والروحية في الفئات المتنفذة والغنية أشد من غيرهم، وآمالهم وطموحاتهم التي لم يحققوها ولم يصلوا إليها أشد إيلاماً وإيذاءً للنفس**»[3].

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب:٣١.

(٢) م ن.

(٣) صحيفة النور، ج ٢٢، ص ٣٥٨، في رسالة لسماحته لنجله السد أحمد.

هـ - عواقب الأعمال

إن نتائج وعواقب الأعمال التي تصدر من الإنسان وتعود تبعاته عليه على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن تكون النتائج مادية، وفي هذه الصورة يمكن التعرف على هذه النتيجة حسياً، كما لو أن أحداً رمى نفسه من بناء شاهق على أرض صلبة، أو تجرع سماً زعافاً، فإن نتيجة مثل ذلك ستكون معلومةً محسوسةً.

النوع الثاني: النتائج التي يكون لها ارتباط بباطن العمل ولا يعد أمراً محسوساً. وبعبارة أخرى، لا يكون انعكاساً للبعد الملكي للعمل، وإنما هو انعكاس ونتيجة لبعده الملكوتي، غير أن أثره يظهر للإنسان في هذا العالم؛ مثل كثير من الأعمال الصالحة والمرضية، مما يترك أثراً حسناً في حياة الإنسان مادياً ومعنوياً.

ومثالاً على ذلك: ما أشارت إليه الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام من أن صلة الرحم تنسئ في الأجل وتزيد في العمر. أو ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام من أن صلة الرحم تطهر الأعمال وتزيد في الأموال وتدفع البلاء وتسهل الحساب في الآخرة وتزيد في الآجال[1].

وقد نص القرآن الكريم على أن شكر نعم الله يزيد في النعم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم / ٧] ، وأن طاعة الله وتقواه تزيد البركة وتنزل الرحمة والعطية[2]. وفي المقابل فإن الإعراض عن الله تعالى يستتبع شدةً وضنكاً في الحياة وينتهي بالخسران[3]. وقد جاء في الروايات أن منع

---

(١) الأخلاق للسيد عبد الله شبر، ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) انظر: الأعراف/ ٩٦.

(٣) طه/ ١٢٤.

الزكاة يمنع نـزول النعمة والبركة ويحول دون زيادة الرزق[١]. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

النوع الثالث: نتائج الأعمال التي تترتب على أعمال الإنسان وتظهر له في عالم الآخرة. وهذه بدورها على قسمين:

القسم الأول: ما يصل إليه في البرزخ، مثل ضغطة القبر، التي هي نتيجة بعض الأعمال، وقد ورد في الروايات أن بعضها يتسبب فيها، من قبيل: تضييع النعمة[٢]، وسوء الأخلاق في البيت مع الأهل[٣]، مما قد يبتلى به المؤمن.

وقد ينجو الإنسان من هذا العذاب بسبب بعض الأعمال، مثل ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام من أن من حج البيت أربع مرات أمن من ضغطة القبر[٤].

القسم الثاني: ما يواجهه الإنسان يوم القيامة وما فيه من مواقف، ليكون بعدها في نعيم الجنة أو جحيم النار.

وقد جرت عادة الناس على أنهم إذا وجدوا عاقبة هذا العمل أو ذاك سيئة فإنهم يحجمون عن فعله، ولكنهم يقتصرون في الغالب على ملاحظة النتائج الآنية والحسية، ولذلك نجدهم في الغالب يحتاطون في ما كانت نتيجته من النوع الأول، إلا أنهم يتساهلون في ما كانت نتيجته من النوعين الثاني والثالث، وهو ما ينشأ من ضعف الإيمان وهشاشة أصول العقيدة. ومن هنا، فإن التفكر في مثل هذه العواقب والنتائج ذات الطابع الملكوتي تسهم بقوة في

---

(١) انظر: وسائل الشيعة، أبواب ما تجب فيه الزكاة، الباب ٣.

(٢) سفينة البحار مادة (ضاع).

(٣) انظر: مستدرك الوسائل، أبواب جهاد النفس، الباب ٦٩، الحديث ٤.

(٤) سفينة البحار، مادة (ضغط).

الحدّ من الإقدام على المعصية والوقوع في الفجور وفي توليد الرغبة وتأكيد الشوق للأعمال الصالحة.

وجاء في الخبر المعتبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: إن رجلاً أتى النبيَّ صلى الله عليه وآله فقال له: يا رسول الله! أوصني. فقال له: **«فهل أنت مستوصٍ إن أنا أوصيتك»**؟ حتى قال له ذلك ثلاثا. وفي كلها يقول الرجل: نعم، يا رسول الله. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: **«فإني أوصيك إذا أنت هممتَ بأمرٍ فتدبّر عاقبته، فإن يك رشداً فأمضِه، وإن يكُ غيّاً فانتهِ عَنْهُ»**[1].

وفي هذا يقول الإمام الخميني قدس سره:

«زِنُوا عواقب الأمور. وتذكَّرُوا أن أمامكم عقباتٍ كأداءَ وخطيرةً، فلا تغفلوا عن ضغطة القبر في عالم البرزخ وما يتلوها من مشكلات وشدائد»[2].

***

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٢٢٣، أبواب جهاد النفس، الباب ٣٣، الحديث ١.

(٢) مجموعة بطاقات الرؤى التربوية للإمام الخميني. ملتقى دراسة أفكار الإمام الخميني التربوية، ص ١٠٥٢ [بالفارسية].

الفصل الثاني

المشارطة والمراقبة والمحاسبة والمعاقبة

إن من أساليب التربية وطرائقها الفعالة والمؤثرة جداً في التربية المعنوية الاستفادةَ مما ذكره أكابر أهل المعرفة[1] والمتوغلون في عوالم المعنويات والتقوى، وهي ما نذكره ضمن خطوات أربع:

١ - المشارطة والعزم

إن الإنسان القاصد للتحرك نحو الكمال وتربية نفسه روحياً يلزمه أولاً أن يشارط نفسه بأن لا يقع في معصية طوال اليوم. فعلى من أراد - مثلاً - أن يقارع صفةً ذميمةً أو عادةً قبيحةً، يعرف أنه مُبتلى بها، أن يعاهد نفسه على التخلي عملياً عن تلك الصفة أو العادة، وأن لا يجعل سلوكه محكوماً لأي منهما. هذه هي الخطوة الأولى.

وأما الخطوة الثانية فهي:

٢ - المراقبة والمواظبة

بعد عزمه وإرادته الجازمة بما تقدم، عليه أن يراقب خواطره النفسانية طوال اليوم، حتى في أوقات راحته، بلا كلل ولا ملل ولا غفلة، لكي لا تتمكن

(١) انظر: رسالة السير والسلوك المنسوبة للسيد محمد مهدي بحر العلوم، ص ١٣٩- ١٤٣، وغيرها.

الوساوس النفسانية والخواطر الشيطانية من إخراجه من جادة الحق والاعتدال والاستقامة، ودفعه إلى فعل شيء من القبائح فعلاً أو عادةً، أو أن تصور له عملاً حسناً بصورة قبيحة، أو تقعده بالكسل والتواني عن عملٍ حسنٍ.

وهذه الخطوة الهامة ستكون على درجة من الصعوبة في بداية الأمر إلا أنها ومع الإصرار عليها سرعان ما تتحول إلى عادة سهلة.

٣ - المحاسبة

الخطوة الثالثة هي المحاسبة، والتي تعني: الاستمرار طوال اليوم في التدقيق والتثبت من الصحة والسلامة في الأحوال والدوافع النفسانية بالنسبة لما صدر عن الإنسان من عمل، وهو ما يعد من أهم الأعمال ضرورةً وأشدها ضراوةً، وهو ما لا يمكن الوصول إلى الغاية من دونه.

والإنسان من خلال المحاسبة يتعرف على نقاط القوة والضعف في نفسه، ويكتشف مدى قدرته على المقاومة والمواجهة والتعامل مع الموانع والعقبات التي تحول دون تحقيق الغاية والهدف وأسلوب التغلب عليها.

قال الإمام الكاظم عليه السلام: «**ليس منا مَن لم يحاسِب نفسَهُ في كلِّ يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه**»[١].

أما الخطوة الرابعة فهي:

٤ - المعاقبة أو المؤاخذة

وهذه الخطوة هي آخر الخطوات في سلسلة عمليات إصلاح النفس، وذلك بأن يتعامل الإنسان بشكل جاد مع ما يصدر منه من عملٍ سيءٍ، فيعاقب

(١) أصول الكافي، باب محاسبة العمل.

نفسَهُ بحرمانها مما تشتهيه بالصوم وأمثاله، كما إذا تخلى عن واجب كالصلاة، أو وقع في محرم كالحنث باليمين ونقض العهد، حتى لا يتساهل معها فتسول له الوقوع ثانية فيه أو في مثله، وهو ما سنتناوله البحوث اللاحقة إن شاء الله تعالى.

* * *

الفصل الثالث

وضع النفس مكان الآخر

الأنانية حجاب للواقع

يعد حبُّ الذات والتعلُّق بها من تلك الحجب الغليظة التي تحول - بظلمتها وقتامتها - في أحيان كثيرة بين الإنسان وبين مشاهدته لجمال الحقائق، بل إنه سيقع إثر ذلك في قراءةٍ معكوسةٍ للواقع وسيحكم على الآخرين تبعاً لذلك، فيرى القبيحَ حسناً والحسَنَ قبيحاً في ما يقولون وفي ما يفعلون، وسيحكم على آرائهم حول القضايا والأشخاص - حتى الصحيح منها - ، أنها غيرُ موافقةٍ للصواب، وعلى أعمالهم - حتى المفيدة - أنها ليست كذلك.

وكمثال على ذلك:

١ - نجد أشخاصاً يرون أن من أسهل الأمور هو أن يقوموا بتعيير الآخرين والنيل منهم - قولاً فعلاً - بما يكدر خواطرهم ويجرح مشاعرهم. وفي المقابل يتعامل مع نفسه كما لو أن شيئاً مما عابه عليهم لم يقع هو فيه ولم يبدر منه.

٢ - وإلى ذلك نجد أشخاصاً يرون معاناة الآخرين ومحروميتهم، ويتيسر لهم أن يسهموا - بنحوٍ ما - في رفع تلك المعاناة وتلك المحرومة أو التخفيف منها، لكنهم لا يقومونَ بشيء من ذلك، مع أنه لو كان في مثل وضع هذا المحروم والمبتلى لتمنى، بل فرض على الآخرين أن يقوموا بما يجب!

عليهم القيام به دون منةٍ ولا معروفٍ، لرفع معاناته وتفريج كربته، هذا إن لم يعتقد بضرورة مجرد السعي في ذلك وإن لم يكن ذا نتيجة!

أما بالنسبة للمدح والثناء الذي قد يصدر من محبيه ومريديه وأصدقائه في حق من يعده خصماً له - عداوةً أو حسداً - ، وكذلك بالنسبة للتأييد والدعم الذي قد يبدر منهم لتيار فكري وثقافي أو جهوي، لا يتبناه أو يميل إليه، بل حتى لنادٍ رياضيٍّ لا يشجعه ولا يميل إليه، كذلك يسوؤه ويوقعه في غمٍّ وهمٍّ، بينما نجده مسروراً لو حصل شيء من ذلك لأي شخص يحبه، أو جهة يميل إليها، ويستصوبها بغضِّ النظر عن صوابها وخطئها.

الأحكام الصائبة والدقيقة

إذا لاحظنا أن الإنسانَ محبٌّ لذاته فسنجد أن من السهل عليه الحكم على الحسن من أفعاله والقبيح، سواء ما كان منها على نفسه أو على الآخرين في شخوصهم أو أفعالهم، فهو يُقدِم على بعضها ويُحجِم عن بعضها الآخر.

وكمثال على ذلك:

١ - إن الولد إذا أهمل أباه أو أمه، أو شعر تجاههما، خاصة إذا كبرا وشاخا، أنهما صارا عبئاً ثقيلاً ويتمنى التخلص منه كأي عبء ينوء به ويرهقه، إن هذا الولد لو التفت إلى أنه سيصل به الحال إلى ما وصل إليه أبواه وأن مصيرهما سيكون بعينه مصيره، فهل سيرضى بإهمال أبنائه في حقه ؟!

٢ - وكذلك في حال تآمره على آخر أو آخرين، أو أساء التصرف في حق أحد لحسدٍ أو أنانيةٍ، هل فكَّر آنئذ كيف سيكون تصرفُهُ لو كان هو مَن وقع عليه الحسدُ أو تصرفٌ معه غيره بأنانيةٍ ؟ هل سيرضى منهم ما وقع هو فيه ؟! أم أنه سيتوقع منهم حسنَ التصرف والأدبَ في التعامل ؟!

وقد جاء في الخبر أن المعلّى بن خنيس قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن حق المسلم على المسلم... إلى أن قال: «**إني أحبك وأخشى عليك أني إن بينتُها ولم تعمل بها أن ينالك عقاب تضييعها**»؟!

فأجبته: أستعين الله على ذلك!

فقال عليه السلام: «**أيسر حقٍّ منها أن تحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك**»[١].

وهذه الطريقة هي التي اعتمدها الأئمةُ المعصومون عليهم السلام في تربية وتهذيب نفوس الآخرين، وكانوا يوصون بها، ويؤكدون على أهميتها، ويُرغِّبون عبادَ الله تعالى في مراعاة حقوق الغير؛ إن أردوا أن يُصنَّفوا ضمن طلاب تهذيب النفس وتزكيتها.

وجاء في وصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام قوله: «**يا بُنَيَّ اجعل نفسَك ميزاناً في ما بينكَ وبين غيرك، فأحبِبْ لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لنفسك. ولا تظلمْ كما لا تُحَب أن تُظلَم، وأحسِن كما تحب أن يُحسن إليك. واستقبح من نفسك ما تَستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك**»[٢].

وجاء في حديث آخر أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يَتعامل مع عموم الناس أن يجعل الميزان في تعامله معهم أعز الناس وأقربهم إلى نفسه[٣].

وكمثال على ذلك:

أن تواجه في الزقاق أو الشارع رجلاً مسناً وقع أو امرأةً مسنّةً وقعت،

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٤٤، أبواب أحكام العشرة الباب ١٢٢، الحديث ٧.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٤٢.

أو أصيب في حادثٍ، وهو في أمسّ الحاجة إلى عونك، فإنه ينبغي له أن يتصور لو كان أحد هذين هو أبوه أو أمه، فكيف ينبغي له أن يتصرف؟

والقرآن الكريم لما تناول مسألة التعامل مع الأيتام من قبل من يتولى شؤونهم، ومن باب ترغيبهم برعاية حقوق الأيتام بكل أمانة وتربية بما يلزم من العطف والحنان، اعتمد هذا الأسلوب فقال: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء / ٩].

والإمام الخميني قدس سره اعتمد هذا الأسلوب أيضاً، فقال، في خطاب له لأعضاء مجلس الخبراء:

«إنهم [الأعداء] إذا قالوا إن أصلَ نظام الجمهورية الإسلامية سيءٌ وقبيحٌ، فإن جذور هذا القول شيطانيةٌ، نبتت في قلب هذا القائل وهو لا يشعر. إنه يحسب أنه يتقرب إلى الله بإضعاف الجمهورية الإسلامية، وهنا يُخطِئ الإنسان ما لم يراقب نفسه بدقةٍ متناهيةٍ ويقوم بمحاسبتها ومجاهدتها؛ إن هو أراد أن يملك القدرة على تشخيص نواياه ومدى مطابقتها للحق والصواب، ولعلّي لو كنت مكانهم لقلت ما قالوه. فالأساس هو ما يستقر في النفس من جذور ورواسب»[1].

وقال في خطاب آخر:

«البلاد الآن مثل الأسرة فكما يجب علينا العمل لأسرنا وعوائلنا بكل إخلاص وجدٍّ، فكذلك يجب على السادة الوزراء، وعموم الناس والعمال والموظفين، يجب عليهم جميعاً العمل للبلاد والوطن بمنتهى

(١) كوثر، مجموعة خلاصة خطابات الإمام الخميني، ج ٢، ص ٦٣٦.

الصدق والإخلاص»[١].

وجاء في الأثر: أن غلاماً شاباًّ أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ائذن لي في الزنا!

فصاح الناس، فقال: مه!

فقال رسول الله ﷺ: **أقربوه، ادنُ!**

فدنا حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: **أتحبه لأمك؟!**

قال: لا.

قال: **وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتحبه لابنتك؟!**

قال: لا.

قال: **وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. أتحبه لأختك؟!**

قال: لا.

قال: **وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم. أتحبه لعمتك؟!**

قال: لا.

قال: **وكذلك الناس لا يحبونه لعماتهم. أتحبه لخالتك؟!**

قال: لا.

قال: **وكذلك الناس لا يحبونه لخالاتهم»**.

(١) كوثر، ج١، ص ٧٣٨.

فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «**اللهم كفِّر ذنبَه وطهِّر قلبَهُ وحصِّن فرجَهُ**»[1]. فكان لا يلتفت إلى شيء بعد، أي منَّ الله عليه بالعفة التامة.

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن من طرائق التربية (أن تضع نفسك في موضع الآخرين)، سواء في محاسن الأفعال أو في مساوئها، ثم الإقدام على الفعل بعد الحكم عليه بكل موضوعيةٍ وإنصافٍ.

إنه منهجٌ لو اتبعه جميع الناس وتجذَّر في السلوك الاجتماعي إلى الدرجة التي أرادها رسول الله ﷺ، في قوله الشريف: «**المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إن اشتكى شيءٌ منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة**»[2]، لسُعدوا جميعاً ونالوا خير الدنيا والآخرة.

* * *

(١) منتهى الآمال، ص ٢٠.

(٢) الأخلاق للسيد عبد الله شبر، ص ٩٦.

الفصل الرابع

إحصاء عيوب الآخرين والنقد الهدام

إحصاء عيوب الآخرين

لو لم يكن في الأنانية والعجلة والتدقيق في سلوك الآخرين من ثمرة مذمومة إلا البحثُ عن معايب الآخرين وتعييرُهُم ومساءلَتُهُم وإحراجُهُم لكفى به قبحاً! مع ملاحظة أن هؤلاء الأنانيين يغفلون عما يمكن أن يقعوا فيه من قبائح الأفعال والأقوال. وقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة بوضوح في روايته التي ذكرناها آنفاً.

وفي الرواية المعتبرة عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**إن أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يواخي الرجلُ الرجلَ على الدين، فيحصي عليه عثراتِهِ وزلاتِهِ، ليعنِّفه بها يوماً ما**»[1].

وفي حديث للإمام الصادق عليه السلام يرويه عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «**مَن أذاع فاحشةً كان كمبتدئها، ومن عيّر مؤمناً بشيءٍ لم يمت حتى يرتكبه**»[2].

وفي هذا الصدد يقول الإمام الخميني قدس سره:

(١) أصول الكافي، باب عثرات المؤمنين.

(٢) م ن، باب التعيير.

«لا عيب أكبر من أن لا يتعرف الإنسان على عيوبه ويغفل عنها مجتمعةً، بينما هو مشغول بمتابعة عيوب الآخرين»[١].

نعم، لو حصل ذلك بقصد التعلم والاعتبار فهو أمرٌ حسنٌ ومقبولٌ، باعتبار أن الإنسان، وهو المحب لنفسه، يحب صفات نفسه وما يرتبط به، ومن هنا قد يكون الإنسان ذا صفات قبيحة ومذمومة، ولكنه غير ملتفت إلى قبحها. ومن هذا المنطلق فإن عموم الناس عندما ينظرون إلى المرآة لا يرون غير محاسنهم، وإن لم تكن محاسن حقيقية، في حين أن هذه الصفات والشؤون بعينها إذا لاحظها الآخرون وجدوا معايبها وقبائحها.

وقد أشار القرآن الكريم في موارد مختلفة إلى هذه الحقيقة، كما نجده في التعريف بسلوك المنافقين ونهجهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة / ١١].

وما نجده في موارد عدة في تناوله لأعمال الكافرين، كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾[٢].

وعليه، فإن كان النظر إلى سلوك الآخرين وأقوالهم وأفعالهم وتقييمها ومحاكمتها للتوصل إلى حكم موضوعيٍّ عليها، وتمييزِ ما هو خطأٌ منها مما هو صوابٌ، وتشخيص ما هو حسنٌ مما هو قبيحٌ، إن كان بهذا القصد، وبغرض التعرف على كيفيةَ التخلص من شَرَك العلائق النفسانية والتحرر من عشق الذات بصورته المبغوضة، فإنه ليس فقط غير مذموم ولا يترتب عليه مفسدةٌ، بل سيكون أحدَ عواملِ التربية وطرقِها، وسبيلاً إلى التعرف على مساوئ الأخلاق وصولاً إلى التخلي عنها[٣].

(١) الكلمات القصار للإمام الخميني ص ٨١.

(٢) سورة النمل، الآية: ٢٤، وسورة العنكبوت، الآية: ٣٨، وسورة الأنفال، الآية: ٤٨..

(٣) المعرِّب: ولكن يجب التحرز تماماً من نشرها وإذاعتها لأن ذلك يدخل ضمن الهتك وهو محرَّم شرعاً. ولعل المؤلف

والفرق بين هذا البحث وسابقه هو: أن الحديث في البحث السابق كان يدور حول ما نتوقعه من سلوك حسن من الآخرين للحكم عليه ومقابلته بما يناسبه، بينما يدور الحديث هنا حول السلوك والتصرف بنحو عام، دون الوقوف عند حدود ما يصدر من الآخرين. وهذه الطريقة تشكّل، من حيث المبدأ، أساساً وملاكاً لتشخيص السلوكيات والتصرفات غير المناسبة، سواء في ما تعلق بنا أو بغيرنا.

ويقول الشيخ الأجلّ السعدي الشيرازي: قيل للقمان: ممن تعلمت الأدب؟ فقال: ممن لا أدب له، لأني كلما نظرت في سلوكه ووجدته قبيحاً تجنبته[1].

وفي الأثر عن إمامنا العسكري عليه السلام أنه قال: «**كفاك أدباً أن تجتنب ما تستقبحه من غيرك**»[2].

الابتعاد عن الحب والبغض

للوصول إلى الواقع هناك أمران أساسيان لا بد من ملاحظتهما ومراعاتهما، إن أردنا تجنب الاعوجاج والانحراف في الحكم، وهما:

١ – أن لا يكون نظرنا مبنياً على أساس المحبة الشديدة والمودة المفرطة، وذلك لأن من طبيعته أن يجعل من أحكام العقل واقعةً تحت تأثير المحبة والمودة ومحكوماً لهما. وهذا الأمر يعمي العين عن النظر إلى العيوب، والأذن عن سماع مرّ الحق.

أغفل ذلك لوضوحه.

(١) كلستان سعدي، في أخلاق الدراويش، الحكاية ٢١.

(٢) منتهى الآمال الطبعة القديمة ص ٤٠٧، بتصرف.

وفي ذلك يقول سعدي الشيرازي: قيل لحسن الميمندي: إن للسلطان محمود عبيداً ذوي جمال أخّاذ، وكلٌّ منهم من بدائع الدنيا، فكيف لم يمل إلى أي منهم، سوى ميله إلى إياز الذي ليس له حسن أحدهم؟! فقال: إن ما حلّ وسط القلب فهو الحسن.

إن كل من يهواه السلطان وإن كان قبيحاً فهو الحسن

فإنك إن نظرت بعين المحبة إلى (ديو) فسيكون مَلَكاً بعينك الكروبية (المَلَكية)

والمحبوب تارة يكون شخصاً، وأخرى يكون جماعةً، وقد يكون بيئةً معينةً أو أي شيء. وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون / ٥٣].

وهذه الآية الكريمة تشير إلى ما يمكن أن يحدثه التأثير الحاد والجدي للتعلق والميل القلبيين إلى حزب أو أي شيء، على توجيه الفكر والعقل باتجاه خاص هو ما يكون قريباً من المحبوب، سواء كان هذا المحبوب حقاً أو باطلاً.

٢ – وكذلك يجب أن لا يكون نظرنا مبنياً على أساس البغض والعداوة والعناد، وذلك لأن نظراً كهذا، إلى أي حادثة أو فعل، سينحرف بفكرنا إلى مسار غير صائب، وسيحول بيننا وبين الوصول للحقيقة. وكم من صفة حسنة وفعل جميل سيبدو لهذا الناظر قبيحاً وبشعاً، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا أقبلت الدنيا على قومٍ أعارتهم محاسنَ غيرِهم، وإذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسنَ أنفسِهم**»[1].

(١) نهج البلاغة، الحكمة: ٩.

وقال سعدي الشيرازي:

إن مـن يـنـظـر بـعـين الإنـكـار سيبدو له وجه يوسف غير جميل

وعليه، فالنظرة الواقعية هي أن يدع الناظرُ الحبَ والبغضَ جانباً، ويتجنب الودَ والعنادَ، ثم يدرس عمل الغير، أو أي قضية يرغب في الحكم عليها ثم يتخذ القرار المناسب فيها.

* * *



الفصل الخامس

الاستفادة من انتقادات الآخرين

إن بعض الثناء والمدح الصادر من الآخرين قد يرضي النفس، ويعد معه هؤلاء المدّاحون أفضل الأصدقاء والمحبين! كما أن انتقادات الآخرين قد تؤدي بمن وجهت إليهم الانتقادات إلى الاضطراب والسخط على مَن انتقد!

ولكن التملق للآخرين ومدحهم في غير موضع المدح قد يؤدي بالممدوحين إلى أن يحسبوا أنفسهم - خطأً - أنهم قد بلغوا الكمال، وهذا لا يبعدهم عن الكمال الحقيقي فحسب، بل إنه سيحول بينهم وبين الكمال أن يبلغوه، ويجعل من أرواحهم أجنبية عن الكمال تماماً.

ومن هنا نجد روايات كثيرة تنهى عن الإنصات إلى مدح الآخرين لأنفسنا، وتذم ذلك.

١ - ففي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**احثوا في وجه المداحين التراب**»[١].

٢ - وفي الخبر عن علي عليه السلام أنه قال: «**رُبَّ مفتونٍ بحسن القول فيه**»[٢].

(١) أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين، ج ١، ص ٣٠١.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة: ٤٦٢.

٣ - وعنه عليه السلام في خطبة أوردها جواباً لأحد أصحابه؛ وقد مدحه: «... **وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يُظن بهم حب الفخر ويوضع أمرهم على الكبر. وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك**»[١].

وقال الإمام الخميني قدس سره، في خطاب له في أعضاء مجلس الشورى، وقد ألقى السيد فخر الدين حجازي كلمة أشاد فيها بالإمام قدس سره:

«**إني أخشى أن أصدِّق بما قاله السيد حجازي عني، وأن أقع في الغرور بسبب قوله وأمثاله فيَّ، فأهوي إلى حضيض الانحطاط. إني أعوذ بالله تبارك وتعالى من الغرور. وإني لو اعتقدت في نفسي تميزاً على الآخرين فهذا انحطاطٌ فكريٌّ وروحيٌّ**»[٢].

كانت سيَر الأعاظم تقوم على أساس الترحيب بانتقادات الآخرين أشد من ترحيبهم بمدح المداحين. وإن دلّ هذا على شيء فإنه يدل على عظمتهم وسمو قدرهم ومنزلتهم الروحية، وهذا هو سر توفيقهم وبلوغهم أهدافهم العالية.

وجاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، وهو يعرِّف بأفضل الإخوان وأحبهم أنه قال: «**أَحبُّ إخواني إليَّ مَن أهدى إليَّ عيوبي**»[٣].

وفي هذا النص الشريف لطائف ينبغي التدقيق فيها والوقوف عندها:

١ - أن الإمام عليه السلام مع أنه في نفسه معصومٌ عن أن يقع في عيبٍ

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢١٦.

(٢) كوثر، مجموعه خلاصة بيانات الإمام الخميني قدس سره [بالفارسية]، ج٢، ص٢٤.

(٣) أصول الكافي، كتاب العشرة، باب من تجب مصادقته ومصاحبته، الحديث ٥.

أخلاقيٍّ، ومن ثم فإنه ليس بحاجة إلى مَن ينبهه إلى شيءٍ من ذلك، إلا أنه بقوله هذا لأصحابه إنما يرسخ في أذهانهم ونفوسهم أنَّ إمامهم ليس ممن يحب أن يُمدَح، أو أنه سيُقرِّب مَن يبالغ في التملق إليه. كما أنه بقوله هذا يعلم أصحابه ويربيهم بأن اللائق بهم أن يكونوا هكذا، وأن يُسروا بانتقادات الآخرين البناءة والإيجابية لهم وأن لا يغتموا بسببها.

وهذه طريقة من طرائق التربية والتعليم التي اعتمدها أهل البيت المعصومون عليهم السلام من أجل إحداث أبلغ الأثر في نفوس المتربين والمتعلمين في مدرستهم، لتتعمق دروس الأخلاق في أصول أرواحهم، وذلك بأن يبدأوا بأنفسهم، مع أن واقعهم بعيد كل البعد عن العيب.

٢ – أن اختيار كلمة (إخواني) يشير إلى حقيقة أننا لا ينبغي أن ننظر إلى (المنتقَد) نظرة عدائية، فنخاصمة، وإنما ينبغي النظر إليه بعين الحب والتقدير، بل بعين الأعز والأحب، لنستقبل انتقاده البناء بكل وجودنا.

٣ – أن اختيار كلمة (أهدى)، والمشتقة من (الإهداء) يعد اختياراً راقياً ومعبراً، وذلك:

أولاً: أنه يبيِّن حقيقة أن تعريف شخص ما بعيوبه ينبغي عده خدمة من الخدمات الجليلة تقدم له.

ثانياً: أن إعطاء شيء ما لشخص إنما يعدُّ (إهداءً) إذا كان نابعاً من اللطف به والمحبة له، وتعريفه بعيوبه إنما يعد هدية إذا كان بقصدٍ بنّاءٍ وقائم على أساس محبته ومودته، وأما إذا وقع لا بهذا القصد؛ بل بقصدٍ الهدم والإيذاء والتحطيم، بل حتى إذا كان بقصد الإصلاح، ولكن قيل بأسلوب يهتك معه المنتقَد (بالفتح) فلا شك أنه لن يكون هدية بل سيصنف في عداد الأعمال العدوانية والقبيحة.

ثالثاً: أن كل إنسان يكون شاكراً لكل مَن أهدى إليه شيئاً، وهكذا ينبغي أن يكون رده على من انتقده ناصحاً.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في ذيل كلام له تقدم بعضه:

«ولا تظنوا بي استثقالاً في حقٍّ قيل لِي، ولا التماسَ إعظام لنفسي؛ فإنه مَن استثقل الحقَّ أن يُقال له أو العدلَ أن يُعرض عليه، كان العملُ بهما أثقلَ عليه»[1].

والعادة جرت على أن من يحسبون أنفسهم في غنى عن انتقاد الآخرين ونصحهم، ويأنفون أن يسمعوا موعظة أخلاقية تصلح معايبهم، حيث يزعمون لأنفسهم الكمال ولا يبصرون في ذواتهم نقصاً، جرت بالحكم على هؤلاء أنهم مبتلون بعيب هو أكبر العيوب.

قال الإمام الخميني قدس سره:

«ليس لأحد أن يدَّعي خلوَّهُ من كلِّ نقصٍ، ولو ادَّعى أحدٌ ذلك فهذا أكبرَ عيبٍ فيه»[2].

* * *

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٧.

(٢) كلمات قصار للإمام الخميني قدس سره [بالفارسية]، ص٨١.

الباب الثاني

تربية الآخرين

- الفصل الأول: قيمة البيان
- الفصل الثاني: طريقة الاستفادة من البيان
- الفصل الثالث: الإرشاد والنصيحة
- الفصل الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- الفصل الخامس: العواقب والنتائج المتوقعة



الفصل الأول

قيمة البيان

من خصائص الموجودات الحية تبادلُ المعلومات وتناقلُ الرسائل. فلكلِّ موجودٍ حياةٌ، سواء في ذلك الموجودات الروحانية ؛ كالملائكة، والموجودات الحيوانية، على تنوعها واختلاف أصنافها.

ففي عالم الحيوانات، تعد مسألةُ انتقال الأحاسيس والمشاعر والمعلومات من شواخص عالم الخلقة ولطائفها. وإن من وجوه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم أنه تناول هذه المسألة في عصر نزوله الذي يسمى بعصر الجاهلية، فبيّن محادثة النمل بعضها لبعض في قول الله عز وجلّ :﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل / ١٨]. وذلك حينما أراد سليمان النبي عليه السلام وجنوده عبور منطقة النمل.

أما الإنسان، الذي له بعدان:

أحدهما : روحاني، يحمل الاستعداد التام للتعلم والتفكير، ولا يكفيه ما لدى الحيوانات الأخرى من الإمكانات المحدودة.

وثانيهما : مادي طبيعي، يتأتى معه للروح أن تقوم بنشاط هام يتوقف إنجازه على ماديته.

فإنه، أعني الإنسان، يحتاج في تبادل المعلومات إلى وسيلة ذات إمكانات هائلة في مجال المفاهيم والمعاني الإنسانية، وفي الوقت نفسه لا تكون خارج عالم الطبيعة والحس.

والحق سبحانه اختار من بين جميع الوسائل وسيلة (البيان)، وذكر في قرآنه الكريم تعليمه وإلهامه للإنسان بعد ذكره خلقته مباشرة ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن / ٢-٣]. ولعل السرِ في ذلك أن هذه الخصوصية، من بين جميع خصوصيات الإنسان، تشكِّل العلامةَ الفارقةَ الوحيدةَ والأساسَ بينه وبين ما عداه من الحيواناتِ والموجودات. واللافت للنظر أن الـ(نطق)، والذي يفيد القول والخطاب، أُخِذ عند المنطقيين جزءً من الذات والماهية للإنسان فقالوا في تعريفه أنه (حيوانٌ ناطق)، أي إنه الموجود الذي يمكنه إبراز جميع ما يختزنه من معانٍ ومفاهيم ذهنية ومقاصد في ألطف عبارة وأدقها، وليس هناك ما يحول بينه وبين ذلك.

وقد عدّ الله سبحانه، في آية أخرى، هذه القدرة على ابتكار الألفاظ المتنوعة واللغات المختلفة، آية من آيات قدرته، جنباً إلى جنب خلقته لهذا العالم من سماوات وأرضين، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ [الروم / ٢٢].

وقد أَخَذ الإنسانُ - بما أتاه الله سبحانه من هذه القدرة والقوة - بتشكيل قواه الاجتماعية والمدنية لتأمين ضرورات الحياة الإنسانية فابتكر اللغات، ثم اكتشف الخط وجعله علامة على الألفاظ والكلام، إلى أن بلغ به الحال إلى التفكير في التحسين والتطوير فاهتم بالآداب للغرض نفسه.

ولا نجد آلةً ووسيلةً أسدت من الخدمات للإنسانية ما أسدته نعمة (البيان)، ولم يتحقق نمو بشري وتكامل إنساني إلا تحت ظل (البيان). وقد

تكامل الفكرُ البشريُّ إثر بعثة الأنبياء وتراكم التجارب وجهود بني البشر في التعرف على أسرار الكون عبر آلاف السنين، ولولا البيان لم يتأتّ لدعوات الأنبياء أن تصل إلى الناس، وكيف ستنتقل علوم السابقين إلى المتأخرين بغير البيان ؟

ولا يخفى أن صلب عمل الأنبياء إنما هو التبليغ والتعليم والتربية، وهل يمكن تحقيق هذا الهدف المقدس والعظيم بشيء آخر غير (البيان) .

كيفية الاستفادة من البيان

يمكن الاستفادة من هذه الوسيلة في التربية والتعليم بأحد طريقين :

الأول : النصح والإرشاد

المراد بـ(النصح) طلب الخير، أما (الإرشاد) فهو التعريف بالرشد والبعث نحوه. وهذان العملان من المهمات الكبرى للأنبياء عليهم السلام والأئمة عليهم السلام وهي ما ينشده الأولياء والقادة الدينيون.

يقول الإمام السجاد عليه السلام في فقرة من دعاء مكارم الأخلاق ضمن مناجاته لربه سبحانه : «**واجعلني من أهل السداد ومن أدلة الرشاد**»[1].

كما نجد في دعاء الافتتاح سؤالاً من ولي الله من الله تعالى: «**اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك**»[2].

والهدف من النصح والإرشاد إنما هو الرقي بمستوى التربية والثقافة

(١) الدعاء العشرون من أدعية الصحيفة السجادية.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

ونشر الفضائل الأخلاقية وتعظيم الشعائر. وليس بالضرورة القيامُ بذلك تبعاً للوقوع في مخالفة شرعية من ترك واجب أو فعل حرام، وإنما الهدف الأساس منه هو الوقاية والصيانة لهذا الإنسان عن أن يقع في ما يؤدي به إلى الوقوع في حرام أو إهمال واجب في عرف المجتمع ومعتقده. وهنا يكمن الفرق بينه وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا الأمر، أعني النصح والإرشاد، على مستوى من الأهمية والمنزلة الجليلة بحيث صار شكراً للسان وزكاةً للعلم.

وفي هذا الصدد قال الإمام الخميني قدس سره:

«النصيحة من الواجبات، وتركها من الكبائر»[1].

وقال أيضاً:

«إرشادُ الناس أمرٌ راجحٌ وإن كانوا صالحين، والله تبارك وتعالى نصح الأنبياءَ وأمرَهم بالتقوى...»[2].

الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لا تخفى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الثقافة القرآنية والفقه الإسلامي، ودورُهما الحيويُّ والذي لا بديل له في حفظ السلامة الاجتماعية وتثبيت الأمن الاجتماعي وإقرار العدالة الاجتماعية وتهذيب الناس وتربيتهم دينياً.

والنصح والإرشاد وإن كان دورهماً حيوياً وخطيراً في نمو المجتمع

(١) صحيفة النور، ج ١ ص ٢١.

(٢) م ن، ج ١٧، ٢٢٠.

وسيره نحو القيم الإنسانية والدينية، إلا أنهما لا يبلغان في الأهمية ما يصل إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك باعتبار أن الغالب في مقام النصح والإرشاد ليس هو مواجهة أسباب الانحراف وجذوره، بل الغرض منه - كما تقدم - التعليم وإرشاد الجهال والرقي بمستوى المجتمع في ثقافته الدينية والأخلاقية. وهذا بخلاف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذان هما واجبان لمواجهة الوقوع في المنكر أو ترك الواجب، بالنهج المقرر في كتب الفقهاء الأعاظم، حيث يعالج بهما جذور الانحراف وأسبابه.

وخطورة الأمر وأهميته تكمن في هذه النقطة، وهنا ينبغي البحث في سرّ منزلتهما في الإسلام. كما أن هذا الأمر هو الذي حدا بالكثيرين إلى التخلي عنه وإهماله، إلى أن أصبح شيئاً فشيئاً في زوايا النسيان، بل بلغ الأمر ببعضهم أن عادَوْه وحالوا دون تنفيذه، ورفعوا عقيرتهم بأنه على النقيض من الحرية!

لذلك نجد بعضهم يجعل الدين مبنياً على أساس التساهل والتسامح!! ويقعون بذلك في خطأ فاحش نشأ من الخلط بين السهولة والتساهل. وفرق كبير بين أن يقال إن الدين وأحكام الشريعة (سهلة سمحة)[1]؛ بمعنى أن قوانينها وبنودها ليست شاقة ولا يشوبها حرج، وبين أن نكون لا مبالين وسلبيين أمام أسباب الانحراف ومظاهره. بل إن ذلك في أساسه على النقيض تماماً من وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ التي هي من مسلمات أحكام الشريفة ومحكماته. وليس الإصرار على أن التسامح والتساهل هو السهولة سوى مغالطة بيّنة.

(١) أقول أنا المعرّب: قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج/٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة/١٨٥].

إن أمرَ الله تعالى في التشريع والتكوين على نهج واحد، فقانونه في التشريع نظير قانونه في عالم الطبيعة والتكوين، إذ المقنِّن واحدٌ، وحركة جميع مظاهر الوجود؛ من الإنسان والطبيعة، إليه واحدة، وهذه الوحدة في المقصد والغاية تقتضي نسقاً ونظاماً واحداً، إلا أن هذا النظام في عالم الطبيعة يسير بنحو غريزي وفطري، وفي عالم الإنسان بنحو التشريع والاعتبار وباختيار وحرية.

وعلى هذا الأساس فإننا حينما نتأمل في واقع عالم الطبيعة سنرى أن الأصل والقاعدة فيه تقوم على أساس الصلاح والإتقان والعدل. حتى لو أن موجوداً واحداً أراد المشاغبة والإخلال بالنظام لجندت سائر مفردات الوجود في إبعاده، ولولا هذا لاختل الكون في مدة وجيزة.

وكمثال على ذلك يكفينا أن نلقي نظرة على مقاومة الجسم الإنساني للميكروبات والفيروسات الضارة، بمجرد دخول عنصر واحد أجنبي يزاحم عمل الجسم الطبيعي، إذ تعلن تعبئة عامة للجنود المدافعين، والمسماة بكريات الدم البيضاء، بدءً من النزول في ساحة القتال لسد منافذ البدن واعتماد ارتعاش البدن فترتفع حرارته بسبب حركة الكريات وفساده تمهيداً لطردها.

ونظير هذا نجده في مختلف الظواهر الوجودية، حيث إن طبيعية كل شيء لا تحتمل أي قوى مضادة لسلامتها وصلاحها.

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في عالم التشريع، الدور نفسه بالدفاع وطرد العناصر التخريبية.

إن المجتمع الإسلامي في حركته إلى الله إنما يتبع القوانين الصادرة منه عز اسمه، والشياطين، الظاهرين والمخفيين، يمثلون دور الفيروسات والميكروبات الخطرة والضارة، وهم أعداء هذه الحركة الإنسانية المقدسة.

نحو الله تعالى وهم بذلك أعداء لنظام الطبيعة، ولهذا نقرأ في الدعاء الوارد بعد زيارة إمامنا الرضا عليه السلام : «**سيدي لو علمت الأرض بذنوبي لساخت بي، أو الجبال لهدتني، أو السماوات لاختطفتني، أو البحار لأغرقتني . . .**»[(١)].

وعليه، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعدان حقاً طبيعياً للصالحين ووظيفتهم اللازمة، وذلك للمحافظة على المسيرة الاجتماعية وصلاح المجتمع عن أن يتجه إلى الانحراف، ولئلا تتمكن العناصر التخريبية والمفسدون من النيل من طهارة المجتمع وتعكير أمنه المعنوي للإخلال بسلامته وتوازنه، وفي غير هذه الصورة فإن الاختلال والفساد وتسلط الفاسدين سيكون هو النتيجة الطبيعية والمنطقية لذلك.

قال محمد بن عرفه سمعت الإمام الرضا عليه السلام يقول : «**لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكر، أو ليُستعملنّ عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم**»[(٢)].

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال : (**يكون في آخر الزّمان قوم ينبغ** [يتبع خ ل] **فيهم قوم مراؤون** [إلى أن قال] : **ولو أضرّت الصّلاة بسائر ما يعملون بأموالهم وأبدانهم لرفضوها، كما رفضوا أسمى الفرائض وأشرفها**».

إنَّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فريضةٌ عظيمةٌ، بها تُقام الفرائض؛ هنالك يتمّ غضب الله عزّ وجلّ عليهم فيعمّهم بعقابه فيهلك الأبرار في دار الأشرار والصّغار في دار الكبار.

---

(١) مفاتيح الجنان، الدعاء بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام.

(٢) وسائل الشيعة، أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...، الباب ١، الحديث ٤.

إنَّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصّلحاء، فريضة عظيمة، بها تُقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر)[١].

العواقب المتوقعة والمحتملة

يشكل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القوة الضاربة في مواجهة مظاهر الفساد والاستكبار التي حصلت وتحصل في أوساط المسلمين. ويظن كثيرٌ من المتدينين أن هذه الوظيفة قد تنتهي بلحوق الضرر بهم لو قاموا بها، ولذلك نجدهم يتقاعسون في أدائها. في حين أننا نلاحظ:

أولاً: أنه ما من تكليف إلا وفيه شيء من المزاحمة، وهذا هو السبب في أهميته.

وثانياً: أن الإنسان العاقل والفطن يعرض نفسه للمخاطر والأضرار اليسيرة إذا كانت ستجنبه مخاطر وأضراراً أكبر، وكما قال الإمام الباقر عليه السلام في ما ذكرناه من رواية قبل أسطر؛ من أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيجر وراءه المخاطر الكبيرة، مما يدعو إلى القيام بها مهما كان الثمن. ونهضة الإمام الحسين عليه السلام جاءت في هذا السياق.

وثالثاً: قال أمير المؤمنين عليه السلام، في خطبة له: «... **واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لن يُقربا أجلاً ولن يقطعا رزقاً**»[٢].

ولتوضيح كلامه عليه السلام نلفت إلى ما يلي:

١ - أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينطلق من نظام وقانون له

(١) م ن، الحديث ٦.

(٢) وسائل الشيعة، أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...، الباب ١، الحديث ٤.

قواعده المقررة وليس هو فعلاً يؤدى عبثاً، بل يلاحظ فيه منهجه ومراتبه ومراحله، وتؤثر في نوع أدائه أوضاع الزمان والمكان. ويجب على كل مكلف من المسلمين أن يتعلم مسائله في حدود الابتلاء به، ليكون ذلك مقدمة لتطبيق بشكلٍ علميٍّ صحيحٍ.

وما نشاهده من تبعات سيئة لتطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه ناشئٌ من عدم الفقه الصحيح بأحكامه الشرعية، أو عدم تبصر بالواقع، أو من كليهما، مما لا يقف تبعاته السلبية على عدم تقوية الدين وثقافة القرآن، بل تتجاوزه إلى إلحاق أشد الأضرار به.

٢ - لم يرد في كلام الأمير عليه السلام ضمان أن لا يفقد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عمله، إذ من الممكن أن يحصل ذلك، ولكنه عليه السلام ضمِن أن لا يُقطع رزقه، والله عز وجل الرزاق.

ومن هنا، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا تسببا في قطع رزق من باب فإن الله عز علاه سيفتح باباً آخر للرزق. ولعل الاهتمام بهذه الفريضة العظيمة يكون سبباً لنيله التوفيق في ما يقدم عليه من أعمال بعد ذلك.

٣ - أن أداء هذه الوظيفة بشروطها لو انجر في بعض الأحيان النادرة إلى حصول الموت فليس معنى ذلك أن هذه الوظيفة كانت السبب في حصول ذلك، بل إن أجله حان حينه وقد قضى الله سبحانه أن يتوفاه إليه.

يقول الإمام الخميني في بيان أهمية هذا التكليف الديني والإنساني:

«إننا اليوم مكلفون، جميعنا مسؤولون، لسنا مسؤولين عن أعمالنا فحسب، بل عن أعمال الآخرين أيضاً (كلكم راعٍ وكلم مسؤول

عن رعيته[١] يجب علينا جميعاً مراعاة هذا التكليف... أنتم مسؤولون عني، وأنا مسؤول عنكم. فلو وضعت قدمي في غير موضعها فإنكم مسؤولون إن لم تعترضوا وتقولوا: لَمَ وضعتَ قدمك في موضع غير موضعها؟! يجب أن تكون هجوميين وأشداء وَترفعوا أصواتكم بالنهي»[٢].

* * *

(١) ميزان الحكمة مادة (مسؤولية).

(٢) صحيفة النور، ج ٨، ص ٤٧.

الفصل الثاني

الاهتمام بالقيم

الشيطان والتلاعب بالقيم

الإنسان كائن فطره الله على طلب الكمال والفضيلة، والخطر المحدق به يكمن في أن الشيطان الغوي يسعى بوسوسته وخدعه، وبشكل مكثف ودؤوب، على حرفه عن مساره، عبر التزوير والتحريف للقيم وقلب الحقائق ليظهر له الحق باطلاً والباطل حقاً.

وقد تناول القرآن الكريم هذا الأمر في مواضع عدة مبيناً خطورته ومحذراً منه، وكيف زيّن الشيطان للكافرين والفجار أعمالهم، ومثالاً على ذلك:

قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة / ٢١٢].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر / ٨].

وفي آية أخرى يشير سبحانه إلى الشيطان كمسؤول عن هذا التزيين الظاهري والخداع محذراً الناس من شيطنته، فقال سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا

﴿ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر / ٣٩].

وتأسيساً على هذا، يمكننا القول إن عمل الشيطان يتمثل في التزيين والخداع، وبذلك يسهل سيطرته على الضعفاء والبسطاء من الناس ويوقعهم في شراكه ويضلهم، وحسب منطوق القرآن فإن عمله لا يعدو ذلك، وليس له سلطان على الناس وراء ذلك[1].

وإن الغزو الفكري والثقافي الاستكباري على مجتمعاتنا الإسلامية إنما يتم على هذا النحو. فيجتهد العدو بما يملكه من إمكانات جبارة ومتنوعة ومتطورة ببذله جهوده في ساحات مختلفة لتقويض منزلة القيم الدينية الأصيلة في نفوس الناس، وبخاصة شريحة الشباب، الذين هم أكثر عرضةً للتأثر، وفي مقابل ذلك يسعى بكل جدية إلى تمجيد وتلميع قيمه المبتذلة والمنحطة، ليصل عبر هذا الأسلوب الخبيث إلى تحقيق مقاصده وأهدافه الدونية بحرف الأمة عن مسير الحق والصواب.

وإن أعظم رسالة لمسؤولي الشؤون الثقافية في مجتمعاتنا لهي السعي قولاً وعملاً في المقاومة الشرسة للأجواء التي سعى الأعداء إلى بثها في أوساطنا ومحاصرة منجزات العدو، جنباً إلى جنب إعلاء منزلة القيم الإلهية والإنسانية الأصيلة والحقيقية، للمحافظة على بقاء الطريق إلى الله تعالى سالكاً ومفتوحاً للراغبين في السير في طريق الهدى، ولتضييق سبل الباطل ونبذ أهله.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢. ونص الآية:
﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

القرآن وضوابط القيم

تحدث القرآن بصوت عالٍ عن أفضلية ذوي الفضائل الأخلاقية على غيرهم، وأكّد على ذلك، مع ذكره لأمور جعلها مِلاكاً للتفاضل، نعرضها في ما يلي :

١ – الإيمان

وفي ذلك يقول عز من قائل :﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة / ١٨].

٢ – التقوى

قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات / ١٣].

٣ – العلم

قال تعالى :﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر / ٩].

٤ – الجهاد

قال تعالى :﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء / ٩٥].

٥ – السبق والمبادرة إلى الخير

قال تعالى :﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد / ١٠].

وبالطبع في القرآن الكريم آيات أخرى أشارت إلى قيم تفاضلية غير ما ذكرنا(١)، إلا أن الذي يبدو أنها ترجع إلى ما ذكرناه.

الاهتمام بالقيم في سيرة النبي صلى الله عليه وآله

من الخصائص البارزة في شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله اهتمامه الفائق بالفضائل الأخلاقية والسجايا الإنسانية النبيلة ولا تعلو منزلة إنسان عنده صلى الله عليه وآله إلا بقدر ما يتحلى به من فضائل أخلاقية وصفات حسنة، ولم يكن صلى الله عليه وآله يقيم وزناً بعد ذلك إلى حسب أو نسب أو لون أو عرق أو مقام اجتماعي أو مستوى اقتصادي.

فقد أعلن صلى الله عليه وآله بكل حزم وصلابة في الموقف، وبعد أن فتح مكة، أن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، وسائر ما كانوا يتفاخرون به من قيم الجاهلية وأعلن بدلاً عنها قيمة التقوى، تحت شعار قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات / ١٣].

وقد روى العلماء في ذيل الآية ١١ من سورة المجادلة: أن النبي صلى الله عليه وآله كان جالساً مع بعض أصحابه في (الصُّفَّة)(٢)، وقد غصَّ بهم المجلس، فجاء بعض من شارك في غزوة بدر، ولم يكن لهم مكان يجلسون فيه فسلموا على رسول الله صلى الله عليه وآله ووقفوا بين يديه، فأحسن صلى الله عليه وآله جوابهم، والتفت إلى الحضور وسلم عليهم، فأجابه القوم، والوضع على ما هو عليه من ضيق المكان، وكان

---

(١) انظر: الآية ١٠٠ من سورة المائدة، والآية ٥٠ من سورة الأنعام، والآية ٢٠ من سورة الحشر، والآية ٢٢ من سورة فاطر، والآية ٧٦ من سورة النحل.

(٢) كان بعض المهاجرين من المسلمين يقيمون في أطراف المسجد لأنهم لم يكونوا يملكون دوراً يعيشون فيها، وبعد مدة أمر النبي صلى الله عليه وآله ببناء عريش أو مكان خارج المسجد لإقامتهم فسمي بـ(الصفة)، وقد استوعب في المسجد بعد توسعته.

المتوقع من الحاضرين أن يتزحزحوا لمن جاء من إخوانهم، ولكن أحداً منهم لم يفعل ذلك، فبان التأثر على محياه الشريف لسوء استقبال الأصحاب لهؤلاء المجاهدين، فأوعز الرسول ﷺ إلى أصحابه الجالسين من مهاجرين وأنصار ممن لم يشارك في غزوة بدر أن يقوموا ويخلوا المكان لإخوانهم البدريين، فظهر على وجه بعضهم السخط وعدم الرضا.

فوجد المنافقون في ذلك فرصة سانحةً للنيل من مكانة الرسول ﷺ بين المسلمين، وقالوا: ها أنتم تقولون إن رسولكم عادل في سلوكه، فأين العدل في ما فعل، بأن يجلس الوافد على المجلس مكان من سبق إليه لمصاحبة الرسول ومجالسته[1].

إن هذا التصرف النبيل والهادف من رسول الله ﷺ وإن كان في نظر السطحيين وأولئك المنافقين مخالفاً للعدل والإنصاف، مما أدى إلى اعتراضهم، إلا أن التدقيق فيه يكشف عن عمق العدل، بل إن هذا التصرف كان شكلاً من أشكال تثبيت القيم من خلال تقدير المجاهدين وإعلاء جهادهم وجهودهم، الأمر الذي أسهم في الإبقاء على الإسلام، بل وعلى حياة أولئك القاعدين. وهذا التصرف كان في حقيقته إعطاء الحق لأهله وعين العدالة.

الإمام الخميني قدس سره والاهتمام بالقيم

حمل الإمام الخميني قدس سره، وهو ربيب المدرسة النبوية ومجسِّد قيمها، حمل همَّ القيم الإسلامية والإنسانية، فعمد إلى نشرها بكل حزم وإصرار وأخذ بترسيخها في نفوس المؤمنين عبر أفضل أساليب البيان، ونستعرض في ما يلي بعض جهوده تلك.

---

(١) مجمع البيان، ج ٩، ص ٣٧٨.

كان رحمه الله يقول، مبيّناً علو المؤمنين ومشيداً بدور التعبويين وأفضليتهم على أصحاب القصور :

«إن من يفتخر بأنه سافر إلى الاتحاد السوفييتي، وأنه التقى بالزعيم هناك ثلاث مرات، هل يظن أن إيران هي الاتحاد السوفييتي (يضحك الحاضرون) . هنا بلد الإسلام، هنا لا يستحق الكرملين أن يذكر، ولا البيت الأسود[1]، هنا بلد رسول الله صلى الله عليه وآله، هنا بلد الإمام الصادق عليه السلام، هنا نعتقد بأفضلية حراس ثورتنا على أصحاب القصور، هنا تعبويونا وأمتنا أشرف ممن سكن جميع القصور في العالم ومن جميع الأدعياء الذين يزعمون أن على الدنيا بمن فيها أن تخضع . .»[2].

وفي أحد بيانات هذه الشخصية العظيمة، التي يعلن فيها الحرب بين القيم وأضدادها، يصنف نفسه ضمن المدافعين عن القيم فيقول :

«إن الحرب التي بدأت الآن لهي حرب بين الحق والباطل، حرب بين الفقر والغنى، حرب بين الاستكبار والاستضعاف، حرب بين الحفاة والمترفين عديمي الإحساس. وإني أقبّل أيادي جميع أولئك الأعزاء في مختلف أقطار العالم، ممن حملوا على عواتقهم أسلحتهم وعزموا على الجهاد، وأحييهم بكل إخلاص وأنثر عليهم زهور الحرية والكمال»[3].

وقال أيضاً :

«إن عظمة الإنسان بأخلاقه وسلوكه، لا بسيارته ذات الموديل الفلاني، ولا بحشمه وخدمه. إن هذه كلها لا تبين عظمة هذا الإنسان، بل إنها تتسبب في انحطاطه عن مقاماته التي وصل إليها»[4].

---

(١) يعني البيت الأبيض الأمريكي.

(٢) صحيفة النور، ج ٢٠، ص ٤٩-٥٠.

(٣) م ن ، ص ٢٣٤.

(٤) م ن ، ج ١٣، ص ٢٦٣.

الفرق بين المجتمع الغربي والمجتمع الإسلامي

من حيث المبدأ فإن الفرق الأساس بين المجتمع الغربي والمجتمع الإسلامي هو في منظومة القيم، باعتبار أن المجتمع الغربي لا نجد في نظامه السياسي أو لدى مسؤوليه أولوية للقيم، وإنما الأولوية لديهم تنحصر في إرضاء رغبات الناس، فلو افترضنا أن رغبة الشعب غلبت على تأمين الحرية الجنسية والشذوذ والنشر المسكرات والفواحش وأمثال ذلك، فعلى الدولة أن ترضخ وتوفر ما يلزم لتحقيق هذه الرغبات من قوانين ونظم وميزانيات ... ، بينما نجد أن الحكومة الإسلامية مكلفة إلى جانب تأمين احتياجات لناس المادية والمعيشية بل والترفيهية، هي مكلفة بالقيام بتوجيه الشعب أخلاقياً وبحفظ قيمه الأخلاقية، يقول الإمام علي عليه السلام في عهده الخالد لعامله مالك الأشتر رحمه الله :

«ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء؛ فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة»[1].

إن هذا التوجيه من أمير المؤمنين عليه السلام، والذي دوَّنه كنهج للحكم الإسلامي على مالك الأشتر أن يطبقه، لدليلٌ على ضرورة هيمنة القيم وحاكميتها على المجتمع المسلم، لتكون إحدى أبرز خصائص هذا المجتمع .

* * *

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٥٣.



الفصل الثالث

احترام الشخصية

معرفة النفس

من أهم العوامل في حفظ الأشياء الثمينة الاهتمام بها هو معرفتنا التامة بقيمتها، فلو أن شخصاً حاز على جوهرة ثمينة ولم يكن على علم بقيمتها فإنه سرعان ما سيفرط بها. ومن هنا، فإن الاهتمام بالأشياء وحفظها يتوقف على المعرفة بها.

تأسيساً على ذلك حرم السفيه - في شرعة الإسلام - من التصرف في أمواله، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[١]. وكذلك الطفل ليس له الحق في إجراء المعاملات التجارية بالاستقلال إلى أن يبلغ سن (الرشد)[٢].

والجوهر النفيس ليس مستثنى من هذه القاعدة، بل إن الأمر فيه أوضح وأبلغ، وذلك بلحاظ أن من يملك مالاً ولم يكن قادراً على حفظه ولا على تمييز ربحه من خسارته فإن لوليه القيام بما من شأنه حفظ تلك الأموال من التلف، مع أن هذا الأمر لا نجده في ما يتعلق بـ(النفس)، فليس لأحد أن يقرر لآخر، مهما افترض فيه من الجهل بقيمة نفسه، ما يقدر أنه مصلحة له أو ضرر عليه.

(١) سورة النساء، الآية ٥. وانظر كتاب الحجر في مدونات الفقهاء.

(٢) للتوسع راجع مبحث الحجر في كتب الفقه.

والقرآن الكريم يصف من يقدم على قتل ولده بالسفه والجهل[(١)]. باعتبار أنه جهلٌ بقيمة النفس الإنسانية وكرامتها، ولو كان يعلم لأدرك أن قتل نفس بريئة هو بمثابة قتل الناس جميعاً فـ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة / ٣٢].

كما نجد في القرآن الكريم وصفاً بالجهل والسفه لأولئك الذين عبدوا غير الله تعالى ونبذوا التوحيد خلف ظهورهم، واختاروا غير طريقة إبراهيم التوحيدية فخانوا أنفسهم وجنوا عليها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة / ١٣٠].

وأكثر من هذا فإننا لو نظرنا للقضية من زاوية أخرى، أعني زاوية التدبر في أحوال النفس الإنسانية في تربية الروح والنفس[(٢)]، فسنجد حديثاً عن علي عليه السلام يقول فيه: **«أَكْثَرُ النَّاسِ مَعْرِفَةً لِنَفْسِهِ أَخْوَفُهُمْ لِرَبِّهِ»**[(٣)].

وفي حديث آخر يقول: **«مَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ بَعُدَ عَنْ سَبيلِ النَّجاةِ وَخَبَطَ في الضَّلالِ وَالجَهالاتِ»**[(٤)].

ولعل السر في ذلك يمكن فهمه من قول آخر له عليه السلام جاء فيه: **«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ جاهَدَها، وَمَنْ جَهِلَ نَفْسَهُ أَهْمَلَها»**[(٥)].

---

(١) قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام/١٤٠].

(٢) انظر: الفصل الأول من الباب الأول.

(٣) غرر الحكم.

(٤) م ن.

(٥) م ن.

دور احترام الشخصية في تربية الآخرين

إن احترام شخصية الآخر، أو الآخرين، من قبل من يتولى شأن التربية يستتبع ثلاثة آثار هامة، يعد كل واحد منها - بالنسبة للمربي - عاملاً مؤثراً في تفعيل دوره التربوي. وتلك الآثار أو العوامل هي :

١ - أن هذا العمل، أعني احترام الشخصية، يؤثر إلى حدٍّ كبير في نفس المتربي ويقويه ويعرفه بقيمته الوجودية، وهذا هو أول خطوة في سلَّم التربية.

٢ - أن هذا العمل يولد الثقة في نفس المتربي بالنسبة للمربي، ويزيد من محبته والإخلاص له، كما أنه يحفز المتربي لبلوغ السعادة وحسن العاقبة، مما يؤكد الشوق للمعطيات التربوية.

٣ - أن كثيراً من الأشخاص الذين تكتمل في نفوسهم بعد خمائر الإيمان، ولم تتجذر فيها أصول العقيدة، ولا يزالون في المراحل الأولى في البناء والتكوين، يبتلون بضعف الحوافز للأعمال الصالحة والحسنة، ولا يولونها الاهتمام اللازم، ومن ثم فلابد من بعث الحوافز نحو الحركة والعمل في نفوس أمثال هؤلاء.

فلا يمكن - إذن - التغافل أو التقليل من قيمة الاحترام والتشجيع والثناء في ذلك.

القرآن واحترام الشخصية

اعتمد القرآن الكريم، في ما يرتبط بتربية الإنسان، هذا الأسلوب وأشاد بقيمة الإنسان وكرامتها في آيات متعددة[1]. بل إن كثيراً من آياته جاءت

---

(١) انظر الميزان ج ٦ ص ١٨٦.

بصورة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ و ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ و ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾[١]، وذلك في خطاباته المباشرة له وشرفه بذلك، كل ذلك من أجل تعريفه بالقيمة الوجودية لنفسه، وأنه جديرٌ بأن يخاطَب من قِبَل رب العالم وخالقه، ليزداد بصيرةً بإمكاناته وقابلياته المتعددة المودعة فيه، ولكي لا يفرط فيها.

وبعد ذلك تناول في آيات عديدة مسألتي التوحيد والمعاد وضرورة الرجوع لتعاليم الأنبياء عليهم السلام .

وبالطبع فإن الكفار، بإعراضهم عن الدعوات الإلهية ونبذها، أرخصوا بأنفسهم ونأوا بها عن الكرامة، وفي الحقيقة فإنهم مطرودون عن عالم الإنسانية، ولذلك فقد أضاعوا هذا الفخر وتلك الجدارة.

ولم يرد في القرآن الكريم مخاطبة الكافرين بـ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ إلا في مورد واحد[٢]، مع ملاحظة أن ذلك جاء حكايةً لخطابه تعالى للكافرين قطعاً لعذرهم، وطبقاً لما يراه المفسرون فإن المنادَى فيها غير معلوم[٣]. كما أنا لا نجد خطاباً مباشراً لهم بصيغ أخرى، ولو كان ثمة حاجةٌ لمخاطبتهم فإنه تعالى اختار لذلك ما كان من قبيل :﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [آل عمران / ١٢]، و﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون / ١] دون أن يوجه خطابه لهم بنحو مباشر، وإنما أمر نبيه صلى الله عليه وآله أن يخاطبهم بمفاد الخطاب ومضمونه، وبالطبع فإن ذلك من مقتضيات الخطاب.

هذا بينما نجد في هذا الخطاب الإلهي ما يتجاوز مئة مورد جاء فيها الخطاب بقوله تعالى :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، فضلاً عن آيات كثيرة خوطب فيها المؤمنون بتعبيرات أخرى وبنحو مباشر دون واسطة بين المخاطِب

---

(١) انظر: الإسراء الآية ٧٠، والتين الآية ٤، والحجر الآية ٢٩، والبقرة الآية ٣٠، وغيرها.

(٢) سورة التحريم الآية ٧.

(٣) انظر: مجمع البيان ج ١٠ ص ٣١٨.

والمخاطَب.

إن اعتماد هذا الأسلوب من قبل الله تعالى في خطابه للمؤمنين، وهم العارفون بالله الخالق وعظمته التي لا حد لها، له أكبر الأثر في تحويل أشق التكاليف إلى ألذ المهمات وأحلاها، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**لذةُ ما في النداء أزال تعبَ العبادة والعناء**»(١).

وتصور نفسك - أخي القارئ - ضمن جماعة من الناس، وقد أخذ أحد الشخصيات الهامة والمحترمة بإلقاء خطاب، وفجأة ناداك باسمك أو نادى بعض الحضور معك، طالباً من ناداه - خصوصاً - بالقيام بمهمة أو أمره بأمر، فإن ما لا شك فيه أن المخاطَب سيتلقى هذا التكليف بنشاط خاص، وسيقوم بأدائه بروح مبتهجة، مهما كان الطلب ثقيلاً.

وهذا المثال وإن كان لا يقاس بالخطابات الإلهية؛ إذ الفارق بينهما شاسعٌ، إلا أنه مفيد لتقريب الفكرة إلى الأذهان. وهو درسٌ ينبغي للمربين ومتولي شؤون التربية والتعليم أن يتعلموه من القرآن.

إن الأب أو الأم اللذين يخاطبان أبنائهما وبنحو دائم بعبارات تتضمن الاحتقار والإهانة، ويسعيان دائماً إلى إهمال شخصياتهم وعدم الاعتداد بها، لا ينبغي لهما أن يتوقعا الاحترام والأدب وظهور آثار الأدب والصلاح فيهم. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أكرِمُوا أولادَكم وحسِّنوا آدابَهم يُغفر لكم**»(٢).

يرغب الشبان والأحداث أن يُظهِر الكبار، سواء في ذلك الآباء والأمهات والمعلمون والمربون، احترامهم لهم في المنزل أو المدرسة، وأن يشاوروهم في شؤون الحياة، وأن يظهروا اهتمامهم بقدراتهم، وأن يعتمدوا عليهم، وأن

---

(١) مجمع البيان ذيل الآية ١٨٣ من سورة البقرة.

(٢) أبواب أحكام الأولاد، باب استحباب تعليم الأولاد ....، الحديث ٩، برقم [٢٧٦٢٩].

يحوِّلوا عليهم مهمات كبرى بما يتناسب وإمكاناتهم.

وفي هذه الصورة فإن روح الشاب ستكون على أتم الاستعداد لتلقي أي توجيه تربوي، وبخلافه سيرفض ما يقال له ويوجه إليه من أوامر، وإن كانت صائبة مائة بالمائة، ومهما كانت مفيدة له وسيتمرد عليه، ليختار له طريقاً آخر.

والسيرة النبوية المباركة شاهد على ما نقول، فقد كان ﷺ يوكل المهمات الكبرى، تبعاً لقدرات الأفراد، بغضِّ النظر عن أعمارهم. فإذا كان الشخص جديراً أوكلت إليه المهمة، ولم يحل كونه شاباً عن إيكال المهمة إليه. بل إن شبابه قد يكون مرجحاً لاختياره.

وهذا المبدأ ينبغي مراعاته أيضاً على مستوى القضايا الفكرية، وعلى مستوى القضايا التنفيذية.

وينبغي التعويل على شريحة الشباب، وحل مشكلاتهم على أساس التخطيط السليم والجدي. كما ينبغي الاعتماد على الشباب المؤمن في القضايا الكبرى، استلهاماً من سيرة النبي ﷺ في هذا المجال. وبهذه الكيفية يمكن استقطابهم نحو النظام، وسيكون تنفيذ السياسات التربوية، وخلافاً لذلك لن نحصل على النتائج المطلوبة.

* * *

الفصل الرابع

التحبب

فلسفة التربية

لا شك أن أحد أهم الخدمات التي قدمها الأشخاص المتربون للمجتمع الإنساني هي التربية والتهذيب. ولا شك أيضاً أن ذلك هو أهم وظائف الأنبياء عليهم السلام. وهل ثمة أفضل من أن يحظى الإنسان برعاية آباء وأمهات كرام، وصولاً إلى اكتشاف ذاته وتفجير طاقاته وتكميل نفسه ؟

وبالبداهة فإن الدافع لهذا العمل العظيم إنما هو (المحبة) التي تدفع بالمربي إلى الاهتمام بمصير من يتولى تربيته، وبذل ما يمكنه في سبيل ذلك. وفي المجتمعات الغربية فإن التربية تقوم أساساً الدوافع والعلاقات الشخصية، وإن كان للمحبة وخدمة الجنس البشري دورٌ في ذلك. أما التربية في الإسلام فإنها تقوم على أساس (حب الله). توضيح ذلك أن يقال:

إن المحبة صفةٌ في النفس الإنسانية، تتعلق بما يعتقد الإنسان أن فيه خيره ومصلحته. والخير كله وجميع جهات الحسن إنما تتوفر في الوجود، أما العدم فليس موجوداً ليقال إن فيه خيراً. وعليه، فإن الحب الإنساني، في واقع الأمر، إنما يتعلق بالوجود ومظاهره فحسب.

إن كثيراً من الناس غافلون عن أصل الوجود، ولا يشعرون إلا بمظاهره،

أي إنهم لا ينظرون إلا إلى عالم الكثرة، أما مبدؤه والوجود الصِّرف، الذي هو منشأ جميع الظواهر الوجودية، فإنهم عنه غافلون. لذلك فإن هذه الشريحة من الناس إذا رأت في موجود كمالاً وجمالاً نظرت إليه بنحو مستقل بعيداً عن أصل وجوده، وجعلته محبوبها ومعشوقها.

أما المؤمنون والعارفون لمقام الحق سبحانه، فإنهم يرون أن الوجود الحق إنما هو الله تعالى، وما عداه من الموجودات ليس سوى متعلق وتابع، وفي نظرة أدق وأرق فإنهم يرونها عين التعلق والتبعية لذات الحق سبحانه. وعلى أساس ذلك يتعاملون مع جميع الخيرات والفيوضات. كما أن جميع جهات الحسن في أي ظاهرة وجودية يرونها فإنهم يجدون فيها مظهراً من مظاهر عناية الله وتجلياً من تجلياته. ولهذا السبب فعشقهم ومحبتهم محصورةٌ ومقصورةٌ على الله، وإذا أحبوا شيئاً غيره فهو محبوب بالتبع لمحبتهم لله.

ويسمون هذا العشق بـ(العشق الحقيقي)، لأنه تعلق بالموضوع الذي يجب أن يتعلق به. أما الأول فيقال له (العشق المجازي) لأنه وقع على غير ما ينبغي أن يقع عليه، وهو في الحقيقة لا يليق به.

إن المؤمن يرى أن الناس مخلوقون لله وأنهم عبيدٌ له، ويرى في ذات الإنسان مجلى لعنايات الحق سبحانه، ويرى خدمة هؤلاء، خصوصاً على مستوى التعليم والتربية، واجباً ضرورياً وعملاً مقدساً. وفوق ذلك فإنه يرى في الولد خاصة نعمةً ربانيةً أعطي إياها[1]، وأن تربيته وتعليمه إنما هو شكل من أشكال عرفان الجميل والشكر للنعمة الإلهية ؟

---

(١) جاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أن البنات حسنات والبنين نعمة. انظر: فروع الكافي، كتاب العقيقة، باب فضل البنات، الحديث ٨.

خصائص التربية الدينية

لِما تقدم فإن هذا النوع من التعليم والتربية يمتاز بالخصائص التالية:

١ - أن هذه النظرة تجعل المربي ينظر إلى عمله التربوي مقصوداً به وجه الله تعالى، يرجو الجزاء منه وحده، ولا يرجو أحداً سواه. ويعد هذا عاملاً مهماً من عوامل التوفيق في التربية. فإن من الواضح أن أحد أهم الموانع في التأثير في الفعل التربوي هو شعور من نتولى تربيته أننا نطمع من خلال ذلك في مآرب خاصة، كالشهرة والوجاهة الاجتماعية أو أي نفع مادي. ولهذا جاء في القرآن الكريم التأكيد على أن جميع الأنبياء، الذين تعد تربية الناس أهم تكليف لهم، لم يكونوا يرجون مقابل ذلك أجراً ولا نفعاً، وأنهم لا يريدون بذلك إلا الله[1].

٢ - أن المربى، بلحاظ أنه يرى في عمله هذا أنه ربانيٌّ، لا يشعر بالتعب في مواجهته للعراقيل، بل إنه يجتهد في رفع العقبات عن طريقه، متحلياً في ذلك بالصبر والقوة والجَلَد، لأن من شأن ذلك أن يوفر أسباب التوفيق والنجاح في نيل مراده الأكبر ومرامه الأعظم. وفي استقامة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام، ومثابرتهم في هذا السبيل، وجهودهم الحثيثة خير أسوة وقدوة.

٣ - أن المحصلة التربوية في ضوء هذه النظرة هي وجدان الحقيقية الإنسانية. وفي ظلها فإن المتربي يتعرف، بشكل واضح وجليٍّ، على ذات نفسه، التي هي عبوديته لربه وتعلقه به. وفي هذه الأجواء يمكن للإنسان الإحساس بأنه حظي بتربية كاملة، نال فيها أفضل ما يمكن التحلي به من فضائل ومحاسن أخلاقية. ولهذه النكتة تعد (التربية الدينية) أفضل أشكال التربية

---

(١) انظر: يونس الآية ٧٣، ويوسف الآية ١٠٣، والشعراء الآية ١١٠، وغيرها.

تأثيراً ورسوخاً، كما أن محصلتها ونتاجها يعد أفضل ما يمكن أن يعين الإنسان في أشد الأحوال قساوةً وصعوبةً.

تأثير التحبب في التربية

الإنسان أسير للمحبة ومحكوم لها، حتى قيل: «**الإنسان عبد الإحسان**»[1]. والإحسان والتودد يدفعان بالإنسان إلى حد العبودية. وهذا إنما هو نتيجة منطقية للتحبب بالنسبة للإنسان الذي لم يفقد فطريته.

إن المحبة تقوِّي من روابط الصداقة وتستأصل جذور البغضاء والكراهية. والمحبة من شأنها تأكيد العلاقات الاجتماعية وتعميق الثقة في ما بينهم. والمربي إذا اعتمد الإحسان أسلوباً في التعامل مع من يتصدى لتربيته، أن يهيمن بشكل رئيس على قلبه وفؤاده، ليتاح له بعدئذ التأثير فيه دون عائق ولا مانع.

وعليه، فإذا كانت المحبة تشكل قاعدة وأساساً للتربية، كذلك إظهارها سيكون مؤثراً وفعالاً.

وقد توهم بعضٌ أن من الضروري، إذا أردنا للتربية أن تؤثر أثرها، أن يكون بين المربي والمتربي حاجز من الخوف والحذر، غافلين عن أن الخوف إذا فرضنا تأثيره جزئياً ومحدوداً على التخلي عن الرذائل مادام الخوف قائماً، لكن بمجرد زوال أثر الخوف ستطفو تلك الرذائل إلى السطح من جديد، وربما بشكل أشد، تعويضاً لحرمانه ومنعه بغير اختياره.

وقد أثبتت البحوث المعاصرة والتجارب الكثيرة حقيقة أن إبراز المحبة والتعبير عن المشاعر والأحاسيس والوثوق والاطمئنان، أكثر تأثيراً وجدوى

---

(١) أقول أنا المعرب: هذا قول لأمير المؤمنين في ما رواه علي بن محمد الليثي الواسطي في كتابه عيون الحكم والمواعظ، ، الفصل الأول باب ما أوله الألف واللام، ص ٦١.

في أمر التربية من التخويف. كما أن من يعتمد هذه الطريقة يجد نفسه أكثر توفيقاً وأبلغ أثراً.

حدود إظهار المحبة بالنسبة للأبناء

يتوهم بعض الناس أن إظهار المحبة بالنسبة لمن نربيهم، بالخصوص الأبناء، يجعله مغرورين ومعجبين بأنفسهم. ولذلك لا ينبغي، في ما يعتقدون، التحبب والتودد لهم لدى محادثتنا إياهم، إلى درجة المباسطة والانفتاح التام!

مع أن هذا الزعم إنما يتصور في حالة التدليل، الذي هو التحبب في غير مورده، لا في حالة إظهاره. لأن المحبة إذا وقعت في محلها، ستؤثر ليس في الطفل فحسب، بل حتى في الأحداث والشباب والكبار، ولن تجعلهم مغرورين، بل واثقين من أنفسهم، وكلما كان التودد أشد كلما كان التأثير الإيجابي أشد.

لذلك يبدو لنا أن التحبب والتودد يكون له أثر سلبي في حالتين:

الحالة الأولى : في تلبية رغبات وطلبات من نربيه حتى إذا كانت في غير مصلحته. وذلك أن الطفل والفتى، نتيجةً لمحدودية الأفق وضيق النظرة التي تحكم تفكيره غالباً، يقع تحت تأثير عواطفه ومشاعره وأهوائه، فيطلب أشياء وأشياء قد لا تكون في متناول الأسرة، لقلة ذات اليد، أو لا تكون ذات مصلحة ونفع له، أو تكون مخالفة لحكم شرعي أو عرف اجتماعي.

وفي هذه الحالة يكون لزاماً على المربي رفض هذه المطالب والرغبات، ولكن بلباقة وحنكة، مبيِّناً للابن، أو البنت، أن ذلك على الضد من مصلحته، مع عدم المساس بشخصيته المعنوية، متيحاً له الفرصة كاملةً للتفكير في ذلك.

وبذلك يكون حقق هدفين:

الهدف الأول: أنه وفر لمن يربيه فرصة النضج الأخلاقي والاجتماعي.

الهدف الثاني: أنه أيقظ وجدانه وروح الموضوعية عنده، حتى لا يميل مرةً أخرى إلى مثل ذلك.

وإن الانصياع لمثل هذا النوع من الرغبات له أثرٌ سلبيٌّ، يعد الغرور واحداً منها.

الحالة الثانية: في ما إذا كانت تلبية رغبات الطفل والفتى تستلزم تعدياً على حق الغير. فقد ينساق بعض الناس لشدة محبته تارةً، أو للتخلص من إلحاح الطفل، إلى تلبية رغباته وتحكماته. وهو يزرع بذلك في نفس الطفل، من حيث لا يشعر، روح العداء للآخرين ويقوي هذه الرذيلة، ليدفع به إلى عالم الغرور.

إن مثل هذا الطفل سيرهق أبويه، وفوق ذلك سيكون عنصر إزعاج وإيذاء للمجتمع وناكر للجميل، كما أنه سيشعر في نفسه بالحرمان والأذى لأن كثيراً من آماله ورغباته لن تتحقق.

التحبب في سير المعصومين عليهم السلام

لا ريب في أن أحد الأسباب الهامة لانتشار الإسلام الواسع والتوفيق العجيب لرسول الله صلى الله عليه وآله في بناء مجتمع ناضج ملأت الفضائل ومظاهر النبل جوانبه، هو الخلق الكريم الذي تجلى في سماحته ومحبته التي لا حدود لها بالنسبة لجميع الناس، حتى وصفه الله تعالى بأنه كان ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وأنه

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(نبي الرحمة)[١] مؤكداً أن ذلك هو سر توفيقه، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٢].

قال المحدث القمي: وذكر العلماء في أخلاقه صلى الله عليه وآله أنه كان يؤلِّف الناس ولا ينفرِّهم، ويُكرِم كريمَ كلِّ قوم ويُولِّيه عليهم، ويقول صلى الله عليه وآله: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. ويحذر الناس ويحَّرس منهم، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشرَهُ ولا خُلقَهُ. يتفقد أصحابه ويعطى كلَّ جلسائه نصيبَهُ. لا يحسَب جليسُهُ أن أحداً أكرمُ عليه. مَن جالسه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرفَ عنه، من سأله حاجةً لم يرده إلا بها أو بميسور من القول. قد وسع الناس خلقُه وبسطُه، فصار لهم أباً وصاروا عنده في الخلق سواء[٣].

لما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله دعوة عشيرته الأقربين إلى الدين الجديد ومبدأ التوحيد، قدَّم بين يدي ذلك وجبة غداء فاخرة اشتملت على لحم الماعز والحليب، ولما طعموا دعاهم إلى ما أراد دعوتهم إليه[٤].

وحتى أولئك الذين لم يقبلوا دعوته واستهزؤوا به وبها، فقد هيمن صلى الله عليه وآله عليهم بسبب تلك الدعوة الكريمة فلم يتمادوا في قلة الأدب ولم يقوموا بمشاغبة واكتفوا بأن قالوا ألهذا جمعتنا ؟!

وكذلك بالنسبة للإمام الحسن عليه السلام الذي روي أن شامياً رآه راكباً، فجعل يلعنه، والحسن لا يرد. فلما فرغ أقبل الحسن عليه السلام عليه، وضحك، وقال: **«أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبَّهتَ. فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو**

(١) أصول الكافي، كتاب الدعاء، باب الدعاء للرزق، الحديث ٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٣) كحل البصر في سيرة سيد البشر، ص ٦٦-٦٧، مطبعة الشهيد.

(٤) الإرشاد، للشيخ المفيد، ص ٢٩، ط مكتبة بصيرتي.

سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجةٌ قضيناها لك. فلو حركت رحلَك إلينا وكن ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك؛ لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً». فلما سمع الرجل كلامه بكى.

ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه. الله أعلم حيث يجعل رسالاته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت أحب خلق الله إليَّ، وحول رحله إليه وكان ضيفه إلى أن ارتحل وصار معتقداً لمحبتهم(١).

إن مثل هذه السيرة العطرة وهذا الخلق الكريم لدى الرسول ﷺ وآله عليهم السلام هو الذي يسر نشر الإسلام وزرع التدين. وإن من يستلهم هذا الأسلوب يمكنه جذب خلق الله إلى دين الله وإلى نفسه، ويهديهم إلى سواء السبيل، ويلين من قلوبهم القاسية للحق وسيكون التوفيق حليفه في استمالة النفوس الإنسانية المتوحشة والبعيدة عن الثقافة والأخلاق، لينتقل بهم إلى عالم الإيمان والفضيلة والكمال.

* * *

(١) مناقب آل أبي طالب - ابن شهر آشوب - ج ٣ - ص ١٨٤.

الفصل الخامس

الطرائق غير المباشرة

أنحاء الخطاب

الخطاب تارة يكون مباشراً وأخرى غير مباشر. والدافع للخطاب غير المباشر هو أن المتحدث يتحاشى الحديث مباشرة مع الطرف المخاطَب، بسبب:

١ - ما بينهما من خصومة.

٢ - أنه لا يراه جديراً بالمخاطبة مباشرةً، كما نلاحظ ذلك في الكثير من الخطابات القرآنية الموجهة بطريقة غير مباشرة إلى الكافرين، حيث يوجه الخطاب من الله للنبي ﷺ، بينما نجد الخطاب يُوجَّه بطريقة مباشرة إلى المؤمنين.

٣ - أن يرى المتحدث نفسه أعلى مقاماً من المخاطَب فيحتقره. ومن أجل المحافظة على سمو منزلته وضَعَة مخاطَبه، يوجه الخطاب بما من شأنه ترسيخ هذا التباين في المنزلة، من خلال اعتماد الخطاب غير المباشر.

ونجد ذلك رائجاً بين الرؤساء والمرؤوسين، أو بين طلاب الشهرة.

إن هذه الأنحاء من الخطاب غير المباشر والمقرون نسبياً بالتحقير والإهانة

للمخاطب يبين للمخاطب حقارته أو يرسخ عداوته.

وثمة نحو آخر من هذا الخطاب يعد في نفسه شكلاً من أشكال التربية، وهو أن لا يكون المربي مباشراً وصريحاً بتبيان مراده لمن يتولى تربيته، فرداً كان أو جماعةً، بحيث يحتمل أن يتأثر المخاطَب، أو المخاطَبون، بمضمونه عاطفياً وشعورياً، ولا أقل من عدم رفضهم له.

وتتجلى أهمية هذا الأسلوب في فترات ضعف تأثير الخطاب المباشر، كما نراه في عالمنا المعاصر، وبشكل خاص في أوساط الشباب.

نماذج:

للخطاب والتربية غير المباشرة صور عدة، نستعرضها في ما يلي:

١ - التعريض

قد يُضطر المربي، من أجل إيصال المضمون التربوي والإصلاحي، إلى مخاطبة المخاطبين المقارفين لخطأ أو خطيئة، ممن هو حاضر في مجلسه، يضطر إلى التعريض، فلا يذكر الاسم، كأن يقول: إن بعض الناس مبتلَون بالرذيلة الفلانية، وهم لذلك سيئون...) ثم يأخذ في تبيان نواحي القبح في حالهم أو أفعالهم.

أو يمجد ويستحسن الصفات المضادة لها، كأن يقول: بعض الأشخاص أو الجماعات يتحلون بالصفة الفلانية، وهنيئاً لهم ذلك...).

ومن محاسن هذا الأسلوب أن السامع يكون بمنأى عن التأثر السلبي في حكمه من أي جهة متنفذة، أفراداً أو جماعات، وسيشعر بمنتهى الحرية في الحكم بالحسن أو القبح على هذا العمل وذاك. وسيكون حكمه متمحوراً

حول العمل نفسه، بغضّ النظر عن ما يتحلى به هو في ذاته.

وقد ورد في سيرة النبي الأعظم ﷺ نماذج عديدة على ذلك، مثل ما رواه الإمام الصادق عليه السلام، قال: إن ثلاث نسوة أتين رسول الله ﷺ، فقالت إحداهن: إن زوجي لا يأكل اللحم. وقالت الأخرى: إن زوجي لا يشم الطيب. وقالت الأخرى: إن زوجي لا يقرب النساء. فخرج رسول الله ﷺ يجر رداءه، حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«ما بال أقوام من أصحابي لا يأكلون اللحم ولا يشمون الطيب ولا يأتون النساء؟! أما إني آكل اللحم وأشم الطيب وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[1].

٢ - التطبيق

أ - قد يكون لحكاية القصة أو الحدث التاريخي، بغرض التأسي والاقتداء، في نفس من نتولى تربيته وروحيته وأخلاقياته أثر كبير. وسنتعرض في البحوث الآتية لتفصيل ذلك بإسهاب.

ب - وقد يكون الغرض من ذلك نقل مضمون الخطاب أو الرسالة التربوي والأخلاقي.

وفي الصورة الأولى سيكون التطبيق في عهدة الشخص نفسه أو الجماعة المخاطبة. أما المربي فسيقتصر دوره على الإرشاد والدلالة إلى النموذج المناسب.

وأما في الصورة الثانية فستكون حكاية القصة والحادثة التاريخية أداةً ووسيلةً لنقل مضمون الرسالة، ليتولى المربِّي بنفسه تطبيق حال المتربي

(١) الكافي - الشيخ الكليني - ج ٥ - ص ٤٩٦.

على الحادثة، ليفهمه عبر ذلك الغرض من النقل وضرورة تصحيح وضعه التربوي.

٣ - عطف الخطاب إلى مخاطب آخر

من الصور الشائعة لهذا النوع من الخطاب أن يوجه المربي، القاصد لإيصال رسالته التربوية وأفكاره، لمن يربيه عبر مخاطبة شخص ثالث، مع أن حقيقة الأمر أنه يعني بخطابه الشخصَ غيرَ المخاطَب.

ولهذا الأسلوب من الخطاب طريقتان:

الطريقة الأولى: الاشتراك في وضعية الجلوس

وذلك في ما إذا كان المتربي يرى في نفسه أنه مساوٍ ومشاركٌ، من الناحيتين الروحية والأخلاقية، لمن يوجه له الخطابَ. فإذا لم يوجه المتحدثُ خطابَهُ إليه فلن يكون بين المتربي ومضمون الخطاب حاجزٌ نفسيٌّ. وهو ما يريد المتحدثُ الذي اضطره إلى ذلك اعتقاد المتربي أنه غير مقصود بالخطاب.

الطريقة الثاني: من بابٍ أولى

قد يجد المربي أن ما هو بصدد بيانه وصل إلى مستوى يضطره إلى تسجيل ملاحظات ومؤاخذات على من يعتقد المتربون أن له منزلةً ساميةً، من أجل أن يبين لهم أن سمو منزلته لا تحول بيننا وبين نقده وتقريعه في ما هو مبتلى به من رذائل ومساوئ. وبذلك يؤكد المربي لمن يريد تربيتهم أن قيمة الفضيلة تفوق الأشخاص مهما سمت مراتِبُهم. وأن عليهم أن لا يقعوا في ما وقع فيه من وجه النقدَ إليه.

ونقرأ في القرآن الكريم نماذج لهذه الطريقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر / ٦٥]. وهذه الآية قد تكون واردةً في هذا السياق، كما قال بعض المفسرين[١]. وذلك أن الله عز وجل حينما يوجه خطابَهُ الشديدَ هذا إلى نبيه وخير خلقه؛ على افتراض صدور الشرك في العمل منه، فإن حال غيره سيكون كذلك من باب (الأولى).

٤ - العمل

من أفضل طرائق التربية غير المباشرة (العمل). فـ(الدعوة بالعمل) نحو الفضائل أشد تأثيراً وإنتاجاً من (الدعوة باللسان). وقد ورد في أخبار المعصومين عليهم السلام التأكيد على ذلك بشكل مكثف وأولي أهميةً فائقة. ففي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**كونوا دعاة الناس بأعمالكم، ولا تكونوا دعاةً بألسنتكم**»[٢].

وبالطبع، فإن لـ(الدعوة بالعمل) خصائص وجوانب متعددة، سنستعرضها بالتفصيل لاحقاً بعون الله، ينبغي مراعاتها بشكل جيد. ونتناول الآن ما يرتبط مباشرة ببُعدِ إيصال مضمون الرسالة والتأثير علًى الآخر.

ومن باب المثال:

أ ـ فلو كنا بصدد إصلاح سلوك شخص لا يحترم والديه ويظلمهما ولا يراعي حقوقهما، فيمكن أن نقوم بتقبيل يدي الوالدين ونبالغ في إظهار احترامهما.

ب ـ لو كنا بصدد بيان ما يقع فيه زوج من عدم مراعاته لحقوق زوجته،

(١) تفسير السيد شبر، في ذيل تفسيره للآية الكريمة.

(٢) سفينة البحار.

بزعم أن ذلك يجعله بمثابة (الخادم)، فمن الممكن إبراز احترام الزوجة أمامه، ومشاركتها في شؤون التدبير المنزلي.

وفي هذين الموردين، وأشباههما، سيكون (العمل) أشد وضوحاً وأبلغ تأثيراً في إيصال الرسالة، وسيكون أدعى للاطمئنان والقبول لدى المتربي.

٥ ـ الفن

نقصد بـ(الفن)، هنا، ما يرتبط بطريقة غير مباشرة بمخاطبة الآخر، من قبيل: الأفلام، والمسرحيات، والرسوم، والزخارف... مما لا مجال للنقاش في تأثيرها على مختلف شرائح الناس.

٦ ـ إظهار خلاف ما نعتقد

من الطرائق التي يمكن تصنيفها ضمن الطرائق غير المباشرة أن يقوم المربي بإيهام من يربيه بأنه متصف بالصفة الحسنة الفلانية، مع أنه لا يتصف بها في واقع الأمر. كأن يقول له: إني أرى أنك تتحلى بصفة فاضلة، أو عمل خيِّر، وإني أبارك لك ذلك، وأسأل الله أن تبقى على هذا الحال.

ثم يأخذ في تبيان محاسن تلك الصفة أو العمل وبتبادل معه أطراف الحديث حول ذلك. وكذلك لو كان واقعاً في صفة قبيحة أو يمارس عملاً منكراً، بأن يظهر له أنه لا يتصف بتلك الصفة ولا يعمل ذاك العمل، ثم يشرع بذم تلك الصفة وتقبيح ذاك العمل، ومبادلته أطراف الحديث حول ذلك.

وبطبيعة الحال، فإن اعتماد هذا الأسلوب بحاجة إلى ذوق رفيع ومهارة خاصة لئلا يقع خلاف ما نريد.

طرائق أخرى

ما استعرضناه كان هو الطرائق الشائعة لإيصال الرسالة التربوية بطريقة غير مباشرة، غير أن ثمة طرائق أخرى تندرج في هذا السياق، وإن لم تكن بوضوح ما قدمناه، ولكن يمكن عدها منها بشكل أو بآخر:

أ - النصيحة الضمنية

يقوم بعض الناس، حينما يواجه خطأً أو عيباً يقع فيه شخص ما، بوعظ مرتكب الخطأ والعيب ونصحه علانيةً وأمام الملأ. وهذا التصرف، مضافاً إلى كونه هتكاً لمن تُقدَّم إليه النصيحة، وكشفاً لما يمكن أن يكون مستوراً من حاله عند من لم يعرف به، بل قد يُعدّ مصداقاً لإشاعة الفاحشة، مضافاً إلى كل ذلك لن يكون له، أعني الوعظ والنصيحة، أثرٌ يذكر على الشخص الواقع في الخطأ والعيب، إن لم يترتب عليه عداوة وخصومة بين الناصح والمنصوح.

وخلاف ذلك حينما تُقدم النصيحة سراً حيث سيكون أثرها مضاعفاً، لما يؤكده الناصح عن نفسه من إخلاص وصدق ونزاهة وحرص على مصلحة المنصوح. فإذا ما كسب ثقته اقترب من تحقيق مراده ومأربه. قال الإمام العسكري عليه السلام: «**من وعظ أخاه سراً فقد زانه ومن وعظه علانيةً فقد شانه**»[1].

ومما ينبغي إلفات النظر إليه هو أن هذه الطريقة مهمة جداً للآباء في علاقتهم التربوية بالأبناء، لأن الأبوين في الوقت الذي يجب عليهما فيه إثبات حرصهما ومتابعتهما لشؤون الأبناء الكبار والصغار، هما أحوج ما يكونان إلى توجيه أبنائهم وإرشادهم إلى مواطن خطأهم وخطاياهم دون إفشاء وإشاعة لها بين هذا وذاك.

(١) تحف العقول، باب ما روي عن الإمام العسكري عليه السلام، ص٣٦٨، ط مكتبة بصيرتي.

ب - انتظار الفرص المناسبة

قد يبدر من بعض الناس قول أو فعل يرى المربي تنبيه إلى خطئه فيه وتوجيهه إلى الصواب، لكنه لا يرى أن الفرصةَ مناسبةٌ ولا مؤاتيةٌ من حيث الزمان والمكان للقيام بذلك، الأمر الذي يضطره إلى تأجيل النصح والتوجيه فرصةً مناسبةً.

ومثالاً على ذلك: أن نرى شاباً مبتلى بعادة سيئة، ولكنه لا يملك الإرادة والعزيمة على تركها. ففي هذه الصورة ينبغي للمربي أن ينتهز فرصةً مناسبةً لينتزع منه إقراراً بقوة نفسه وصلابة إرادته، كأن يكون المربي نفسه قد ابتلي بالعادة نفسها، كتناول المخدرات ونحوها، وكيف تخلص منها، بعد أن عرف أخطارها ومضارها. فإذا شعر الشاب بأن المربي الناصح من جنسه سهل عليه تقبل ما يقدم له من نصيحة ووعظ، وعندها يبادر إلى مفاتحته في ما هو بصدده، بأن يقول له: ألست أنت من يقول بأن معتادي المخدرات يجب أن يخلص نفسه منها، مهما كان التعود عليها شديداً وتركها شاقاً، فلماذا لا تترك عادتك السيئة، وتبدو بصورة الضعيف الواهن؟

إن ما استعرضناه من طرائق ليس سوى نماذج خطرت لنا، وقد يكون ثمة طرائق أخرى يتعرف عليها بالبحث والاستقراء.

ولا شك أن اعتماد هذا الأسلوب غير المباشر بطرائقه المتعددة هو ضروريٌّ جداً للقائمين على التربية أفراداً ومؤسسات، وبالخصوص في ما يرتبط بالشباب في عالمنا المعاصر، لما له من الأثر البين والواضح في عالم التربية.

الباب الثالث

الطرائق المشتركة

- الفصل الأول: التعبد
- الفصل الثاني: التبشير والأنذار
- الفصل الثالث: العمل
- الفصل الرابع: العبرة
- الفصل الخامس: الاسوة والتآخي
- الفصل السادس: الرفق والمداراة
- الفصل السابع: المؤاخذة والتأديب [المعاقبة]
- الفصل الثامن: التكرار والتلقين



الفصل الأول

التعبد

العبودية

(العبودية) من العناوين الهامة التي وضعها خالق الكون على الموجودات المخلوقة، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم / ٩٣]. يذهب الراغب الإصفهاني إلى أن جذر العبودية يرجع إلى عبودية الإيجاد[1].

ولما كانت موجودات العالم متعلقة وخاضعة في أصل وجودها بمبدأ الكون والعالم، فإن هذا التعلق والخضوع أمام خالق الموجودات هو عين وجودها، كما أن جميع مفردات الوجود جسدت عنوان (العبد) أمام الله تعالى.

إن هذا التسليم والخضوع والعبودية أمام الله قد تقبلته هذه الموجودات بفخر واعتزاز، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت / ١١].

إن هذا النوع من العبودية، كما مرَّ، لازمٌ من لوازم الخلقة، لا يستثنى منه مخلوقٌ. والإنسان من حيث كونه مخلوقاً داخل ضمن هذا القانون.

---

(١) مادة عبد من مفردات ألفاظ القرآن.

لكن الإنسان، وهو الموجود المكرم والمختار والقادر على تحديد مصيره، يمكنه أن يحقق معنى أرقى من (العبودية)، وهي خصوص ما يتوقف تحصيله على الإرادة والرغبة الذاتية، من خلال في تقبل هذا المستوى من العبودية والالتزام بلوازمها.

ولابد من التنبيه إلى أن القرآن الكريم عرَّف الكفار بأنهم (عباد)، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس / ٣٠]. ولكن من الواضح أن المراد منها هنا المعنى الأول الذي هو ناشئٌ من أصل الخلقة والوجود. أما العبودية بمعناها الخاص بالإنسان من بين جميع المخلوقات، وقد يشاركه في مستوياته الدنيا بعض المخلوقات الأخرى، فلا تُنال بغير التعبد والتخضع لله تعالى.

ولهذا، جاء في كثير من الآيات القرآنية وصف الأنبياء والصالحين بالـ(عبد)، على أساس أن ذلك امتيازٌ وفخرٌ لهم[1].

وفوق ذلك، فإن أيَّ مؤمن مكلَّفٌ بأن يصف أفضل خلق الله، أعني محمداً ﷺ، بأنه (عبد) لله تعالى في تشهد صلاته، يقول ذلك تسع مرات على أقل تقدير. وفوق فإن هذا الوصف يتقدم على وصفه والشهادة له ﷺ بالرسالة، وهو مؤشرٌ على أن للعبودية دوراً محوراً وأساسياً في نيله مقام الرسالة.

العبادة

قدمنا أن للإنسان أمام الله عبوديتين:

الأولى: ما يشاركه فيها جميع المخلوقات.

(١) انظر: النساء الآية ١٧٢، والإسراء الآية ٢٣، والبقرة الآية ٣٠، وآيات أخرى.

الثانية: ما يكون خاصاً به وقد يشاركه بعض المخلوقات.

وتكليف الإنسان أن يترقي في سلم العبودية من مستواها العام إلى مستواها الخاص، عبر تحويل العبودية العامة في الكون إلى عبوديةٍ كاملةٍ وخاصةٍ في ذاته. ولا طريق إلى ذلك بغير (العبادة) والخضوع.

والعبادة هي: تجسيد العبودية الحقيقية والمشتركة بين الإنسان وما عداه من المخلوقات، والإقرار بها.

والإقرار المستمر والتلقين المتكرر للقلب بذلك، وتجلي ذلك في العمل بالجوارح والقول باللسان، يجعل من الإنسان المختار، شيئاً فشيئاً، سائراً على طريق السيطرة على الذات، ليتحول قلبه إلى عرش تتربع فيه العبودية وتتجسد فيه الطاعة لله تعالى.

وعليه، فـ(عبادة) الإنسان يتكامل في عبوديته من العامة إلى الخاصة، ويعرج فيها من الفطرية والجبرية إلى الإرادية والاختيارية، ويُعمل في كل ذلك مواهبه وإمكاناته.

وتأسيساً على ذلك، نشير إلى ما يلي:

١ - أن عنوان (العبد) بمعناه العام يشمل المؤمن والكافرَ على حد سواء. لارتباط ذلك بالخلقة والإيجاد.

٢ - أن منشأ العبودية لله تعال في ذات الإنسان هي العبودية الوجودية والفطرية، والتي تتكامل في ذاته بمقدار ما تتجلى في فكره وقلبه وعمله كفرد مختار.

٣ - ليس ثمة عنوان أشرف وأهم وأنجع للإنسان من مقام العبودية للحق

تعالى. بل إن مقام الرسالة والولاية نفسه متوقفٌ على بلوغ أعلى الدرجات في العبودية.

٤ - أن العبادة سلّم الترقي والتكامل من العبودية البسيطة إلى العبودية العميقة والكاملة. لذلك فإن العبودية وصف حقيقي يأتي ثمرةً للعبادة.

٥ - أن سائر الموجودات وإن كانت تسبح الله تعالى[١]، لكن تسبيحها هذا إنما هو لازمٌ من لوازم خلقتها، لذلك فهو فطريٌّ وغريزيٌّ وجبريٌّ لها، لكن لا بمعنى أنها تُكره عليه. ولهذا السبب فإن الله تعالى لا يمنحها، بسبب هذا التسبيح، كمالاً فوق ما قدره لها في أصل خلقتها، بينما ينال الإنسان بسبب عبادته، التي هي تقع عن اختياره، كمالاً يستتبع سمواً، كما أنه ينتقل ببركة ذلك من نقصان إلى كمال ويترقى بسببه من مرحلةٍ دانيةٍ إلى مرحلةٍ عاليةٍ.

٦ - اتضح أن العبادة في مورد الإنسان مفيدة ونافعة له، ولا موجب لهذا النفع سوى تعبده، كما لا نفع يرجع إلى الله المعبود تعالى من ذلك، وإلى ذلك فإن شيئاً من الضرر لا يلحق به سبحانه جراء ترك التعبد، قال أمير المؤمنين عليه السلام: فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق، حين خلقهم، غنياً عن طاعتهم، آمناً من معصيتهم؛ لأنه لا تضره معصيةُ مَن عصاه، ولا تنفعه طاعةُ مَن أطاعه)[٢].

***

(١) قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء / ٤٤]. وانظر: سورة الحديد، الآية ١، وسورة الحشر وغيرها.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣، تحقيق صبحي الصالح.

مظاهر العبادة

للعبادة مظاهر متعددة، نشير إلى بعضها:

١ - الصلاة

يقول القرآن الكريم في التأثير التربوي للصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت / ٤٥].

وبالطبع ينبغي التنبيه بخصوص ما نحن إلى ما يلي:

أولاً: المقصود بالصلاة في الآية حقيقتها التي هي ذكر الله تعالى، وذلك كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه / ١٤]. ومثل هذه الصلاة ستكون حتمية التأثير في الحد من الفحشاء والمنكر والحيلولة عنها، أما إذا اقتُصر على صورة الصلاة فلن يكون لها هذا التأثير.

ثانياً: جاء في الآية الشريفة الأمر بإقامة الصلاة، وكذلك الحال في آيات أخرى. ومن الواضح أن الأمر بإقامة الصلاة يختلف عن مجرد أداء الصلاة. فإذا أقيمت الصلاة كما تمَّ الأمر بها فإن أثرها الإيجابي على مستوى الفرد والجماعة سيتحقق دون ترديد.

ثالثاً: جاء في الآية الشريفة أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، لكن هذا لا يعني أن كل من صلى سينتهي عن الفحشاء والمنكر، فإننا نرى أناساً يصلون ويعون هذا التأثير للصلاة، لكنهم يضعفون أمام ضغوط شهواتهم وأهوائهم، فيقعون في هذا الذنب أو ذاك. وليس هذا عيباً في الصلاة، وإنما هو عيب المصلي الذي لم يبذل الجهد المطلوب للوصول بنفسه إلى مقام العبودية والرقيّة للحق تعالى.

رابعاً: حتى لو افترضنا أن المقصود بـ(الصلاة) هو مجرد أدائها، فإن مؤديها إذا أداها مقتصراً على ظاهرها فلن يكون حاله مثل حال مَن لا يؤديها أصلاً، من حيث القرب والبعد عن المعصية.

قال الإمام الخميني في هذا الصدد:

«... لا نجد في تعاليم الإسلام فريضةً في مستوى أهمية الصلاة، فكيف تهملون شأن الصلاة وتقصِّرون فيها؟ إن إهمال الصلاة والتقصير فيها هو السبب في كل ما ترونه من طواهر سيئة. انظروا إلى ملفات الدعاوى التي ترفع في المحاكم وأشباهها فهل ترون فيها ملفاً لأشخاص من المصلين؟ إن كل ما سترونه ليس سوى ملفات لجماعة ممن لا يعدون من المصلين. إن الصلاة عماد الأمة»[1].

٢ - الصوم

لا يخفى على أحد الدور التربوي المؤثر للصوم. فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في جواب على سؤال سأله إياه يونس بن ظبيان، فيما رواه عنه المفضل بن عمر، جاء فيه: ما الذي يباعد عنا الشيطان؟ قال عليه السلام: **«الصوم يسوِّد وجهه...»** ثم ذكر عليه السلام بعده أموراً أخرى[2].

ولعل هذا التعبير كنايةٌ عن ما يشعر به الشيطان من فشل وخيبة، بسبب ما قام به الصائم من عمل الصوم الذي أفسد ما عمله الشيطان، وذلك كما لو قيل: إن فلاناً من الناس قام بعمله وسيكون ذلك سبباً لاسوداد وجه خصمه فلان.

(١) صحيفة النور، ج١٢، ص١٤٨.

(٢) وسائل الشيعة، ط مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، ج١٠، ص ٣٩٦، الباب الأول من أبواب الصوم المندوب، الحديث ٣٥.

قال الإمام الخميني قدس سره:

«... إن هذه الضيافة في جميع جوانبها (تَرك). تركٌ للشهوات في الأكل والشرب ونحو ذلك مما تقتضيه شهوات الإنسان. إن الله تعالى دعانا بأن ألزمنا بدخول هذه الضيافة التي ليس فيها سوى (التَّرك). ترك الأهواء، ترك الأكل، ترك الأنانيات، لأنها جميعاً يجب أن تبقى في هذه الدار الدنية... وإني أقول لكم أيها الأعزاء! ولكل من تبلغه كلماتي هذه، خصوصاً شريحة الشباب: هل ذهبتم إلى هذه الضيافة؟ هل استثمرتموها؟ ...إن جميع ما نراه من مفاسد في عالم الدنيا إنما هو بسبب أن الناس لم يدخلوا هذه الضيافة...»[1].

٣ - الذكر والدعاء

إن الدعاء والذكر لله تعالى يعدَّان من أروع حالات الإنسان كما أنهما يصنفان ضمن أكثر تلك الحالات مقبولية لدى الإنسان، وإلى ذلك فإنهما يشكلان سلَّماً لعروجه. إن الدعاء سرٌّ وحاجةٌ، وهو ألمٌ وحرقةٌ بسبب فراق المحبوب، وساحة الوصال واللقاء. إن الدعاء تحليق روح الإنسان إلى عش المعشوق، كما أنه عصارة مشاعر الإنسان الجياشة النقية، وهو أيضاً العين الصافية والفوارة التي تهب للموت قيمته، وللحياة صفاءها ومعناها، ويصل مُلك العالم بملكوته والدنيا بالآخرة.

قال سيف التمار: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: **«عليكم بالدعاء؛ فإنكم لا تَقربون بمثله...»**[2].

ويروي علاء بن كامل عنه عليه السلام قوله: **«عليك بالدعاء؛ فإنه شفاء من**

---

(١) صحيفة النور، ج٢٠، ص٢١٠ - ٢١١.

(٢) أصول الكافي، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، الحديث ٦.

كل داء»[١].

توضيح وتبيين:

للدعاء نحوان من التأثير على الجسم والروح:

أحدهما: غيبي وغير عادي، وهو ما يرتبط بالعناية الإلهية الخاصة، ويتحقق في صورة المصلحة.

ثانيهما: عادي وطبيعي. لا فرق في ذلك بين:

أ ـ ما تعلق منه بمرض روحي أو نفسي، حيث يستأصله الدعاء من جذوره، وبشكل مباشر.

ب ـ ما تعلق منه بأمراض الجسم، حيث يؤثر الدعاء في استئصاله بشكل غير مباشر، لما ثبت في علم النفس من أن كثيراً من الأمراض الجسمانية ذات أسباب روحية ونفسية، وبقدر ما نوفق إلى تحقيق الرفاه والصحة النفسية والروحية فإن تلك المشكلات سترتفع[٢].

العبادة وتربية الآخرين

كما أن للعبادة بصورها ومظاهرها المختلفة تأثيراً تربوياً في صاحبها، فإنها تعد وسيلةً فعّالةً جداً في اختيار القائمين على شأن التربية ومؤسساتها، الذين يفترض بهم التعامل بجدية مع صلاة الجماعة والجمعة وإشاعة ثقافتهما بين مختلف شرائح المجتمع، وإقامة مراسم الدعاء والذكر بينهم، عبر توفير

---

(١) م ن، باب أن الدعاء شفاء من كل داء، الحديث ١.

(٢) انظر: علم النفس للجميع (روانشناسى براى همه)، بالفارسية، لمؤلفيه: كنت آبل، جون آبل، ادوارد استركر، بناه مطبوعاتى صفيعلى شاه، ص ٢١ - ٣١.

الأجواء المناسبة لكل ذلك، وصولاً بالمجتمع إلى تحقيق أهدافه المعنوية النبيلة. وعبر ذلك فقط يقطع الطريق على الغزو الثقافي، الذي ينشط فيه أعداء الله والأمة، والساعي إلى تحطيم السدود الأخلاقية والعقائدية لأمتنا. وهذا هو ما قام به أئمتنا عليهم السلام في هذا الصدد.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**همَّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله بإحراق قوم في منازلهم كانوا يُصلون في منازلهم ولا يصلون الجماعة. فأتاه رجلٌ أعمى، فقال: يا رسول الله! أنا ضرير البصر، وربما أسمع النداء، ولا أجد مَن يقودني إلى الجماعة والصلاة معك؟ فقال له النبي صلى الله عليه وآله: شدَّ مِن منزلك إلى المسجد حبلاً واحضر الجماعة**»[1].

وقد روي مضمون القسم الأول من الحديث في روايات أخرى[2].

والظاهر أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبد صرامةً في أمر كما بدا منه في صلاة الجماعة،كما لو أنه أراد أن يمارس تهديداً تعيه الأمة، ليبين اهتمامه الشديد والمبالغ فيه من قبله صلى الله عليه وآله بالنسبة لهذه الفريضة الإلهية، وضرورة إقامتها في مساجد المسلمين.

* * *

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٩٣، كتاب الصلاة، أبواب الجماعة، باب كراهة ترك حضور الجماعة...، الحديث ٩.

(٢) انظر أبواب صلاة الجماعة من المصدر السابق.



الفصل الثاني

التبشير والإنذار

الخوف والأمل

من العوامل الأساسية للإخفاق والهزيمة في أي خطة تربوية أمران اثنان:

الأول: الأمل وحسن الظن المبالغ فيه بالذات

الثاني: اليأس والإحباط

وثمرة الأول الكسلُ من جهة، والجرأةُ والتهورُ من جهة أخرى.

وثمرة الثاني الحيرةُ والشعورُ بالحمق والبلادة والانكسار، اللذان هما نتيجةٌ مشتركةٌ لهما، وكذلك التخلي عن الواجب والتفريط بالفرص والمواهب.

إن من ملأ وجوده أملاً ورضا ولم يشعر بأي قلق على مستقبله لا يجد نفسه مضطراً للسعي في الحصول على ما من شأنه المحافظة على نفسه من مخاطر محدقة به. كما أن الشخص المحبَط واليائس من الفلاح والنجاح لن يجد في نفسه دافعاً وحافزاً للمبادرة في هذا الاتجاه.

وفي مقابل هذا وذاك، فإن الوقوف بين حالتي الأمل المفرط والإحباط المفرط ينجي من تبعاتهما السلبية معاً، ويأخذ بيد صاحب الموقف نحو الحصول على كمالات أكثر وأعلى. ومن ثم فقد جاء في الآداب الأخلاقية القرآنية تأكيدٌ على هذه الوسطية في نفس المؤمن، فقال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد / ٢٢]. وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص / ٧٦].

بل إنه ذمّ اليأس وجعله من صفات الكفار، كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف / ٨٧].

وفي حديث للإمام الصادق عليه السلام يرويه عن أبيه الإمام الباقر، قال: كان أبي عليه السلام يقول: **«إنه ليس من عبدٍ مؤمنٍ إلا في قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء. لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا»**[1].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: **«لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»**[2].

وقد بيّن هذا الحديث الشريف بوضوح أن الحصول على ثمرة هذين الوصفين يتوقف على الحركة والعمل، وأن الخوف والرجاء هما منشأ التربية والسير نحو الكمال.

---

(١) أصول الكافي، باب الخوف والرجاء، الحديث ١.

(٢) م ن، الحديث ١١.

دور التبشير في تربية الذات

كما تقدم منا ينبغي أن نلاحظ عدداً من الحقائق في ما يرتبط بما يقوم به الإنسان من إحسان في عمل الصالحات:

فأولاً: كونه محفوظاً عند الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم / ٦٤]، كما أنه عز وجل ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة / ٦]. وأن أعمالنا صغيرها وكبيرها لا يستثنى من هذه القاعدة، قال تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف / ٤٩].

ثانياً: أن المكافأة الإلهية على عمل الصالحات لا حد له ولا حصر، بما يشكل في حد نفسه دافعاً قوياً ومحفِّزاً للعمل، من أجل نيل المقامات المعنوية العالية والإنسانية النبيلة، مهما كانت الضغوط والعقبات، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة / ٢٦١].

والظاهر من الآية الكريمة أنها ليست في مقام تعيين حد الثواب، وإنما هي بصدد بيان كثرته وعدم محدوديته. وقد روي في هذا المضمون روايات عديدة، من قبيل ما ورد أن أي عمل مهما صغر إذا قام به صاحبه على أساس الإخلاص لله تعالى سيكون ثوابه عند الله غير قابل للإحصاء[٢]. وقد جاء في

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠. وانظر سورة النساء، الآية: ٤٠، وسورة الأحزاب، الآية: ٢٩، وغيرهما.

(٢) انظر: كتاب ثواب الأعمال للشيخ الصدوق.

الروايات أيضاً أن نعم الجنة في مختلف أنواعها على درجة من الكثرة والتنوع بما يدفع بالإنسان إلى التحير والعجب، بل إنه، يفوق في كثير من الأحيان، حد الاستيعاب لحقيقتها. بل إن عدم القدرة على استيعابها، لعظمتها، قد يؤدي ببعض ضعفاء الإيمان إلى إنكارها، وعدها من الخرافات والأساطير، مع أن هؤلاء لو عمقوا معرفتهم بالله تعالى، وتأملوا بدقة في صفات جماله وجلاله، ولو أنهم فكروا في مظاهر قدرة الله وآثارها وسعتها في الوجود، لو فعلوا ذلك لصدقوا بكل ذلك بسهولة، بعد أن رأوا ما رأوا من أسباب العظمة اللامحدودة والقدرة اللامتناهية لله سبحانه في خلقة الكون. مع العلم أن هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه هو الموصوف منه عز اسمه بقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الرعد / ١٢٦]، بل إن هذا المتاع قليل، فقال: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة / ١٥٨]. كما أنه دون شأن الإنسان، فقال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1].

وأخيراً، فإن الله سبحانه وهو الرحمن، قد امتحن الكفار بأن جعل من نصيبهم كل تلك الزخارف والزبارج، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف / ٣٣].

ولكن في مقابل ذلك أشاد بالآخرة وسعتها وعظمة ما فيها، فقال تعالى: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء / ٢١]. بل إن الأمر وصل إلى حد تشبيه عرض الجنة بعرض السماوات والأرض معاً، فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

(١) سورة طه، الآية ١٣١. وانظر: سورة الأعلى، الآية ١٦، وسورة النازعات، الآية ٣٨، ونحوها.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٣. وانظر سورة الحديد، الآية ٢١.

وقد دعا الله تعالى إلى تعلق القلوب بمقامات الجنة ودرجاتها، ودعا إلى التنافس في ذلك، بل أمر بذلك[١]. وأكد على أن فوات تلكم المنافع يمثل خسارة كبرى[٢].

إن الإنسان الذي يمتلك مثل هذه الرؤية حول قدرة الله تعالى خالق هذا الكون ويلمس تلك القدرة في كل ما حوله من مخلوقات، ويتحسس ربوبيته تعالى للسماوات والأرضين وكافة الموجودات، إن هذا الإنسان لن يرى غير عظمة لا حد لها. مع أن كل ما نراه ونعرفه من عالم الطبيعة، على سعته، لا يمثل في الرؤية الإلهية غير شيء متواضع إذا ما قيس بما وراء الطبيعة، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة / ٣٨].

فهل إن من يؤمن بهذه الرؤية، وهو على أتم الاستعداد لتقبل ما يرد من منابع الوحي من نعم لا حد لها، وهو المؤمن بأن الجنة ونعيمها ليس سوى نتيجة للعبودية الصادقة، هل سيشكك في شيء من ذلك؟!

وهل سيكون كسولاً في السعي الحثيث نحو نيل تلك المقامات؟!

وينبغي التنبيه إلى أنه قد جاء عن المعصومين عليهم السلام أن عبادة الأحرار هي ما كان عن محبة لله تعالى[٣]. ولكن هؤلاء العباد الأحرار قلة قليلة؟

---

(١) انظر من باب المثال سورة المطففين، الآية ٢١، وسورة الحديد، الآية ٢١، وسورة آل عمران، الآية ١٣١، وسورة البقرة، الآية ١٤٨.

(٢) انظر: سورة الأعراف، الآية ٩، وسورة المائدة، الآية ٥٣، وسورة هود، الآية ٤٧، وسورة الزمر، الآية ١٥، وغيرها.

(٣) روى الكليني بسنده عن هارون بن خارجة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «[إن] العباد ثلاثة: **قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً، فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلبَ الثواب، فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عز وجل حباً له، فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة**». أصول الكافي، باب النية، الحديث ٥. الطبعة الرابعة، دار الكتب الإسلامية طهران، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري.

قال الإمام الخميني قدس سره:

«إن جميع عباداتنا إنما نقوم بها من أجل أنفسنا. وإذا كان العبد صالحاً فهو يعبد الله من أجل الجنة. فلو أننا غضضنا الطرف عن الجنة فمن من الناس سيعبد الله؟!»(١).

إن من رحمة الله الواسعة ولطفه أننا لا نشترط، في ما يتعلق بثواب الأعمال، أن يروى الثواب بطرق معتبرة عن أئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام. ففي الخبر المعروف عن الإمام الصادق عليه السلام قال: **«من بلغه عن النبي صلى الله عليه وآله شيءٌ من الثواب، ففعل ذلك طلب قول النبي صلى الله عليه وآله كان له ذلك الثواب وإن كان النبي صلى الله عليه وآله لم يقله»**(٢).

وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام روي المضمون نفسه، إلا أن الذي ورد فيه (من جاءه عن الله تعالى) بدل (ما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله)، سواء الناقل لذلك النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام(٣).

دور الإنذار في تربية الذات

كما أن التبشير والتذكير بما وعده الله تعالى عباده الصالحين من نعم، يمثل عاملاً مهماً للتحرك نحو الفضائل والتحلي بها، كذلك فإن التخويف والترهيب من عذاب الله الشديد لمن وقع في براثن الرذائل والقبائح وإهمال الواجبات والفرائض، بدوره له أثرٌ إيجابي هامّ في تجنب ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات / ٤٠-٤١].

(١) تفسير سورة الفاتحة(بالفارسية)، الإمام الخميني، انتشارات وحدت، تاريخ النشر ١٣٦٢ هـ شمسي، ص٥٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٦٠، أبواب مقدمة العبادات، الباب ١٨، الحديث ١.

(٣) م ن، الحديث ٧.

وقال تعالى :﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن / ٤٦]. وروي عن الإمام الصادق ﷺ، تعليقاً على الآية الشريفة، قوله: «**مَن علم أن الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله من خير أو شرٍّ، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى**»[1].

وروى أبو حمزة الثمالي، عن الإمام علي بن الحسين (صلوات الله عليهما) قال:

إن رجلاً ركبَ البحر بأهلِه فكُسر بهم، فلم ينجُ ممن كان في السفينة إلا امرأة الرجل، فإنها نجتْ على لوح من ألواح السفينة حتى ألجأتْ على جزيرة من جزائر البحر، وكان في تلك الجزيرة رجل يقطع الطريق ولم يدع لله حرمةً إلا انتهكها، فلم يعلم إلا والمرأةُ قائمةٌ على رأسه، فرفع رأسه إليها، فقال: إنسيةٌ أم جنيةٌ ؟

فقالت: إنسيةٌ.

فلم يكلمها كلمةً حتى جلس منها مجلس الرجل من أهله. فلما أن همّ بها اضطربتْ، فقال لها : مالك تضطربين ؟

فقالت : أفْرقُ[2] مِن هذا - وأومأت بيدها إلى السماء.

قال : فصنعتُ من هذا شيئاً ؟

قالت : لا وعزته.

قال : فأنت تفرقين منه هذا الفَرَق ولم تصنعي من هذا شيئاً، وإنما أستكرهك استكراهاً، فأنا واللهِ أولى بهذا الفَرَق والخوف، وأحق منك.

---

(١) أصول الكافي، باب الخوف والرجاء، الحديث ١٠.

(٢) الفَرَق- بالتحريك-: الخوف.

قال : فقام ولم يُحدث شيئاً، ورجع إلى أهله وليست له همةٌ إلا التوبة والمراجعة. فبينا هو يمشي إذ صادفه راهبٌ يمشي في الطريق، فحميت عليهما الشمس، فقال الراهب للشاب : ادع الله يظلنا بغمامة، فقد حميت علينا الشمس.

فقال الشاب : ما أعلم أن لي عند ربي حسنة فأتجاسر على أن أسأله شيئاً.

قال : فأدعو أنا وتؤمن أنت ؟

قال : نعم.

فأقبل الراهب يدعو والشاب يؤمِّن، فما كان بأسرع من أن أظلتهما غمامة، فمشيا تحتها مليا من النهار، ثم تفرقت الجادة جادتين، فأخذ الشاب في واحدة وأخذ الراهب في واحدة فإذا السحابة مع الشاب.

فقال : الراهب أنت خير مني، لك استُجيب ولم يُستجب لي فأخبرني ما قصتك؟ فأخبره بخبر المرأة.

فقال : غفر لك ما مضى حيث دخلك الخوف، فانظر كيف تكون فيما تستقبل[1].

---

(١) الفَرَق- بالتحريك-: الخوف.

أقول أنا المعرب:للمحدث المجلسي قدس سره تعليق على الحديث أورده في مرآة العقول، من المفيد نقل ملخصه، كما يلي:

(اعلم أن الأحاديث الواردة في سعة عفو الله سبحانه وجزيل رحمته ووفور مغفرته كثيرة جدا ولكن لابد لمن يرجوها ويتوقعها من العمل الخالص المعد لحصولها وترك الانهماك في المعاصي المفوت لهذا الاستعداد، فاحذر أن يغرك الشيطان ويثبطك عن العمل ويقنعك بمحض الرجاء والأمل، وانظر إلى حال الأنبياء والأولياء واجتهادهم في الطاعات وصرفهم العمر في العبادات ليلا ونهارا، أما كانوا يرجون عفو الله ورحمته؟! بلى والله كانوا أعلم بسعة رحمته وأرجأ بها منك ومن كل أحد ولكن علموا أن رجاء الرحمة من دون العمل غرور محض وسفه بحت. فصرفوا في العبادات أعمارهم وقصروا على الطاعات ليلهم ونهارهم).

دور التبشير والإنذار في تربية الآخرين

يعد كلٌّ من التبشير والإنذار وسيلةً من أهمل الوسائل التي وظّفها الأنبياء عليهم السلام في مسيرة العمل الدعوي والتربوي، إلى الدرجة التي أصبح وصفا (مبشر ومنذر)، أو (بشير ونذير) من الأوصاف الأساسية لهم عليهم السلام في كثير من الآيات القرآنية[١].

وجاءت (البشارة) ومشتقاتها في القرآن الكريم في أكثر من ستين موضعاً، وأما (الإنذار)، بمعنى التخويف، ومشتقاته ففي أكثر من مائة وعشرين موضعاً. هذا غير ما يرادفهما من كلمات[٢].

والملاحظ أن الغالب على موارد اجتماع التبشير والإنذار تقديم التبشير على الإنذار. ولعل سبب ذلك هو إفهام الإنسان تقدم رحمة الله على غضبه، وعفوه على نقمته وعذابه.

كما أن الإشارة، في القرآن الكريم، إلى الإنذار كوسيلة في دعوات الأنبياء عليهم السلام، في حدود ضعفي مرات استعمال الإنذار، لا يخلو من إشارة إلى أن هذا الأخير أشد تأثيراً في النفس الإنسانية.

وذلك لأن الإنسان قد يرجح لذائذ الدنيا الزائلة، على حقارتها قياساً بلذائذ الآخرة، يرجحها على نعيم الجنة وخلودها بكل ما ورد في حقها من التمجيد والإشادة. وبذريعة أن الأولى عاجلة والثانية آجلة، يغض الطرف عن اللذائذ الحقيقية في الجنة ويتعلق بلذائذ فانية وحقيرة.

غير أن هذا الإنسان نفسه إذا وضع نصب عينيه عذاب الله وانتقامه،

---

(١) مثالاً على ذلك انظر الآيات: ٢١٣ من سورة البقرة، ٤٨ من سورة الأنعام، ٥٦ من سورة الكهف، ٢ من سورة هود، ١١٩ من سورة البقرة، ٢٤ من سورة فاطر.

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (نذر)، و(بشر)، و(خوف) و(وعد)، و(شفق)، ونحوها.

والتفت إلى شدائد البرزخ والقيامة وجهنم الحارقة وما أعد فيها للعصاة والمجرمين والظالمين، والتي لا تحتملها السماوات والأرض، على حد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام[١]، إنه إذا وعى ذلك واستوعبه بعقله وجدانه ولو في حدوده الدنيا، سيسعى إلى النجاة بنفسه من الاستغراق في لذائذ الدنيا، ولن يتبع هواه في ما حرم منها، وسيقي نفسه منها، بل قد يشتغل بالفكر في الآخرة.

وتبعاً للقرآن الكريم ونصوص المعصومين عليهم السلام فإن لتهذيب النفس وتربية المجتمع المسلم ثواباً كبيراً وأجراً عظيماً. وفي مقابل ذلك ورد لمن عصى الله عز وجل الكثير والكثير من العذاب الأليم. وفي مجاميع الأخبار رصيد كبير في هذا المجال.

وقد روى الشيخ المفيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ذكر جهنم وقيامها كان كأنه منذر جيش)[٢].

يقول الإمام الخميني قدس سره في الاستفادة من هذا الأسلوب:

«زنوا عواقب الأمور. وتذكروا أن أمامكم عقباتٍ كأداءَ وخطيرةً، فلا تغفلوا عن ضغطة القبر في عالم البرزخ وما يتلوها من مشكلات وشدائد. وعلى أقل التقادير صدقوا بجهنم. إن الإنسان إذا صدّق بهذه العقبات سيختلف سلوكه في الحياة. أنتم إذا كان لديكم إيمان ويقين بهذه الأمور، لن تكونوا أحراراً في فعل ما تشاؤون. احفظوا أقلامكم وأقدامكم وألسنتكم، وستبذلون جهودكم في إصلاح أنفسكم وتهذيبها»[٣].

---

(١) دعاء كميل.

(٢) الأمالي للشيخ المفيد، المجلس الرابع والعشرون ص ٢١١.

(٣) مجموعة بطاقات الرؤى التربوية للإمام الخميني. ملتقى دراسة أفكار الإمام الخميني التربوية، ص ١٠٥٢ [بالفارسية].

ويقول أيضاً:

«حتى متى تبقون نياماً في عالم الغفلة مستغرقين في الفساد والتمرد؟! اخشوا الله، واحذروا عواقب أفعالكم. استيقظوا من نوم الغفلة...لو تأملتم قليلاً في أمور الآخرة وأهوال يوم القيامة وفكرتم فيها فإنكم ستولون تكاليفكم الثقيلة والملقاة على عواتقكم اهتماماً أكثر. أمامكم عالم آخر، أمامكم المعاد والقيامة فلم لا تعتبرون؟! ... هل فكرتم في العواقب السيئة لما أنتم مبتلون به من اختلافات وخصومات وأشكال التحاسد وسوء ظن وغرور وتكبر؟! هل تعلمون أن عاقبة هذه الأعمال القبيحة والمحرمة هو جهنم، وقد ينجر - لا سمح الله- إلى الخلود في النار»[1].

***

(١) الجهاد الأكبر أو تزكية النفس، الإمام الخميني قدس سره. الناشر مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، الطبعة الثالثة، ص ٣٣ = =وص ٥١. (بالفارسية).



الفصل الثالث

العمل

الإنسان وتنوع العمل

يتخلف الناس فيما بينهم، من جهات عدة: كالشكل، واللهجة، والطول، واللغة، ونغمة الصوت، ومئات الاختلافات الحقيقية والاعتبارية. ولعل أهمها الاختلاف في السلوك. وهذا الاختلاف، الذي هو بدوره وليد الاختلاف في المعايير والقيم التي يؤمن بها هذا وذاك ليس على نسقٍ واحدٍ. وما يعنينا هنا هو دراسة التنوع والكثرة والاختلاف بين الناس في ضوء القيم الأخلاقية الشرعية والفكر الإسلامي.

١ - فطائفة من الناس يعشقون الأعمال الخيرة والصالحة. يؤدونه بارتياح شديدٍ، ويأتون به باعتباره واجباً شرعياً، محتمِلين في سبيل ذلك المشاقّ والشدائد.

٢ - وطائفة أخرى يميلون إلى الأعمال الشريرة. ترى في ما تعمله من شرور أمراً طبيعياً وعادياً، متستقلين في الوقت نفسه القيام بأي عمل خيِّر.

٣ - وبين هاتين الطائفتين نجد أشخاصاً يميلون عملياً إلى العمل الشرير، لكنهم في ذواتهم ووجدانهم وفكرهم يحبون سلوك الصالحين والمؤمنين، ويتمنون لو أنهم ساروا بسيرتهم، لكنهم يجدون ذلك صعباً وشاقاً عليهم،

إلى الحد الذي يغدو فيه إلى مجرد أمنية غير قابلة للتحقق.

والسؤال هو: ما هو منشأ هذه الاختلافات السلوكية ؟

وهل ثمة حلٌّ للطائفة الأخيرة ؟

هذا ما سنعالجه في الفقرة التالية.

القرآن ودوافع العمل

في ضوء التعاليم القرآنية وأخبار المعصومين عليهم السلام فإن الدافع الرئيس للأعمال هو (الإرادة الإنسانية)، والتي تعتبر المهيمن على جميع الدوافع الأخرى. قال تعالى:﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان / ٣].

غير أن ثمة ظاهرة أخرى في وجود الإنسان تشكل دافعاً لعمل الإنسان ومحدِّدةً لطبيعته، ولها نوع تأثير على الإرادة الإنسانية وتوجيهها هنا وهناك. وهو ما أطلق عليه في القرآن الكريم بالـ(شاكلة)، قال تعالى :﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء / ٨٤].

قال الراغب الإصفهاني: أصل المشاكلة من الشكل أي تقييد الدابة... وقوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ أي على سجيته التي قيدته، وذلك أن سلطان السجية على الإنسان قاهر...[1].

وبالطبع ، فإن الراغب إن كان يريد من كلامه نوعاً من الجبر، بمعنى أن إرادة الإنسان واقعة بالمطلق تحت سيطرة الملكات النفسانية بحيث لا يمكن أن تتخلف، فهو باطل ومردودٌ. وإن كان يريد مستوى من الجبر بحيث يعسر

(١) مفردات غريب القرآن، الراغب الإصفهاني، مادة (شكل).

الخروج من هيمنة الملكات، لكنه غير مستحيل، فهو أمرٌ ممكنٌ.

قال العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسير الآية:

... الآية الكريمة ترتب عمل الإنسان على شاكلته بمعنى أن العمل يناسبها ويوافقها، فهي بالنسبة إلى العمل كالروح السارية في البدن الذي يمثل بأعضائه وأعماله هيئات الروح المعنوية. وقد تحقق بالتجارب والبحث العلمي:

١ - أن بين الملكات والأحوال النفسانية وبين الأعمال رابطةً خاصةً، فليس يتساوى عمل الشجاع الباسل والجبان إذا حضرا موقفاً هائلاً، ولا عمل الجواد الكريم والبخيل اللئيم في موارد الإنفاق، وهكذا.

٢ - وأن بين الصفات النفسانية ونوع تركيب البنية الإنسانية رابطةً خاصةً. فمن الأمزجة ما يسرع إليه الغضب وحب الانتقام بالطبع، ومنها ما تغلي وتفور فيه شهوة الطعام أو النكاح أو غير ذلك بحيث تتوق نفسه بأدنى سبب يدعوه ويحركه. ومنها غير ذلك. فيختلف انعقاد الملكات بحسب ما يناسب المورد سرعةً وبطئاً.

ومع ذلك كله فليس يخرج دعوة المزاج المناسب لملكة من الملكات أو عمل من الأعمال من حد الاقتضاء إلى حد العلية التامة بحيث يخرج الفعلُ المخالف لمقتضى الطبع عن الإمكان إلى الاستحالة ويبطل الاختيار، فالفعلُ باقٍ على اختياريته، وإن كان في بعض الموارد صعباً غاية الصعوبة[1].

وفي الخبر عن إمامنا الصادق عليه السلام: إنما خلُد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خُلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً فبالنيتان خلد

---

(١) تفسير الميزان، السيد محمد حسين الطباطبائي، ج ١٣، ص ١٨٩ - ١٩٠.

هؤلاء وهؤلاء. ثم تلا قوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء / ٨٤][١].

وبديهي أن مثل هاتين النيتين تتولد من تلك الملكة والبنية الروحية لهذا الفريق وذاك. وثمة آيات أخرى تدل على هذا المطلب[٢].

ومن مجموع ما قدمنا يتبين:

أن الخصال والصفات الأخلاقية والملكاتِ الراسخة في النفس، كل واحدة منها، حسنة كانت أو قبيحة، تكون منشأً لسلوك معين يناسبها. وإن بقيت الإرادة الإنسانية فوقها، بحيث يمكن أن تنفك عنها في أي زمن، وتحت أي ظرف، مهما كان التخلف عنها في غاية الصعوبة أحياناً. ولهذا جاء في القرآن الكريم خطاباً للرسول ﷺ في ما يتعلق بدعوته الكفار إلى التوحيد، قوله تعالى: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس / ١٠].

دور العمل في إيجاد الملكات

ذهب بعض الباحثين إلى أن الناس مختلفون في أصل الخلقة، وأن كل فرد نسيج وحده وهو يعمل على مقتضى طبيعته. وقد رفض علماء الشيعة هذه النظرية كما رفضوا نظرية الجبر وليس هذا موضع بحثها.

والقول الصحيح في المسألة: أن الصفات والملكات النفسانية إنما هي نتيجة طبيعية ومباشرة لفكر الإنسان وعمله، ولتربيته وبيئته دورٌ محوريٌّ ورئيسٌ في تشكيل ذلك. وكما أشار العلامة الطباطبائي فإن الأمزجة مختلفة، وهي تتفاوت في تفاعلها مع هذا النحو من التربية وذاك، وتكون أكثر استعداداً لبعضها على حساب الآخر، ولكن يبقى عامل التربية والعمل هو الأساس في ذلك.

---

(١) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب النية، الحديث ٥.

(٢) انظر مثالاً على ذلك: سورة فاطر الآية ٢٢، وسورة الأعراف الآية ٥٧.

قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين / ١٤].

وفي الخبر عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «**ما من عبد إلا وفي قلبه نكتةٌ بيضاءُ، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتةٌ سوداءُ، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا [تـ] غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خيرٍ أبداً**»، وهو قول الله عز وجل: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ [آل عمران / ١٥٥]، وهي واضحة الدلالة على أن ضعف الروحية والإيمان إنما هو نتيجة للفرار من ساحة القتال، بسبب ما اقترفوه من معاصٍ. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه**»[2].

وعليه، فإن المؤثرات المحيطية والبيئية، وكذلك عمل الإنسان نفسه، يولِّد شيئاً فشيئاً ملكاته النفسانية والأخلاقية المناسبة للعمل. ثم إن هذه الملكات تصبح سبباً وأساساً لأعماله وميوله.

المجاهدة وأثرها في تهذيب النفس

كما أن لسلوك الإنسان دوراً مؤثراً في تشكيل الأخلاق الملائمة، كذلك فإن لها التأثير نفسه في إزالة صفات أخلاقية مضادة. وعليه، فإن أفضل طريقة للتخلص من صفة محددة، بغض النظر عن كونها حسنةً أو قبيحةً، هو تكرار ممارسةٍ سلوكيةٍ مضادةٍ.

---

(١) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الإيمان، الحديث ٢٠.

(٢) سفينة البحار، مادة (فطر).

وهذا الكلام يشير في حقيقته إلى صعوبة التخلص من العادات. بعيداً عن صلابة الإرادة وإمكانية التخلص، وذلك بلحاظ مقتضى تحكم العادات والملكات النفسانية.

وهذه الصعوبة والشدة هي السبب في تسمية الأمر بـ(الجهاد الأكبر) في ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك. ففي الخبر الذي رواه السكوني عن الإمام الصادق عليه السلام: أن النبي صلى الله عليه وآله بعَثَ بسَرية، فلما رجعوا قال: «**مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر**».

قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟

قال: «**جهاد النفس**»[1].

والسبب في التعبير عنه بالـ(جهاد) صعوبتُهُ، لأنه حركة على خلاف مقتضى الطبيعة والميل الإنسانيين. وأما لماذا سمي بـ(الأكبر) في مقابل الجهاد الأصغر الذي هو مقاتلة العدو الخارجي، فلعل ذلك بسبب أن العدو الخارجي يخوض القتال شاهراً سلاحه، كاشفاً عن شخصيته، كما تتوفر لنا دواعٍ كثير أخرى لمقاتلته، من قبيل الدفاع عن النفس والعرض والكرامة والأرضٍ ونحو ذلك. مما يجعل طريق الجهاد واضحاً وبيّناً.

بينما في الجهاد الاكبر نحن نحارب ذواتنا وميولنا وأنفسنا، التي لا يبدو أن فيها شيئاً من العداء والخصومة أولاً لأن حب الذات يمنع من رؤية حقيقة العداء.

وثانياً بسبب تلك العوامل والظروف التي لا تعين على المجاهد لنفسه على ما هو بصدده.

(١) الكافي، كتاب الجهاد، باب وجوه الجهاد، الحديث ٣.

وحقيقة الأمر أننا بصدد ساحة قتالية نقاتل فيها عدواً له وجهان:

أحدهما: (النفس) بلحاظ كونها (لوّامة)

وثانيهما: (النفس) بلحاظ كونها (أمّارة).

واقتحام غمار مثل هذه الحرب في غاية الصعوبة. وفي الخبر عن الإمام الرضا عليه السلام: «... **سألني رجلٌ عما يجمع خير الدنيا والآخرة، فقلت: خالف نفسك**»[1].

وإنما ننتصر في هذا الجهاد إذا قويت إراداتنا واستعنا بربنا وأيدنا سبحانه. وهو إن كان عسيراً في بداياته، لكنه يسهل شيئاً فشيئاً حيث تضعف صفات الرذائل، عبر الالتزام الثابت بأضدادها من المحاسن، إلى أن ينتهي الحال بمحو الرذائل من صفحة النفس نهائياً.

قال علامة الأخلاق والتربية الشيخ البراقي قدس سره

عند حديثه عن العلاج العملي للحسد:

وأما العمل النافع فيه، فهو أن يواظب على آثار النصيحة التي هي ضده، بأن يصمم على أن يكلف نفسه بنقيض ما يقتضيه الحسد من قول وفعل، فإن بعثه الحسد على التكبر عليه، ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على غيبته والقدح فيه، كلف لسانه المدح والثناء عليه، وإن بعثه على الغش والخرق بالنسبة إليه، كلف نفسه بحسن البشر واللين معه، وإن بعثه على كف الأنعام عنه، ألزم نفسه زيادته. ومهما فعل ذلك عن تكلف وكرره وداوم عليه، انقطعت عنه مادة الحسد على التدريج. على أن المحسود إذا عرف منه ذلك طاب قلبه وأحبه، وإذا ظهر حبه للحاسد

(١) بحار الأنوار ج ٦٧ ص ٦٨.

زال حسده وأحبه أيضاً، فتتولد بينهما الموافقة، وترتفع عنهما مادة المحاسدة[١].

وقال لدى تعرضه للعلاج العملي لرذيلة (الكبر)، مستفيداً مما جاء في أخبار المعصومين عليهم السلام، ما نصه:

... من المعالجات المختصة بالكبر: أن يتذكر ما ورد في ذمه من الآيات والأخبار المذكورة وغيرها، ويتأمل في ما ورد في مدح ضده أعني التواضع – كما يأتي. ولكون الكبر مشتملاً على شيءٍ زائدٍ على العجب هو رؤية النفس فوق الغير، فينبغي أن يعلم أن الحكم بخيرية نفسه من الغير غاية الجهل والسفاهة، فلعل في الغير من خفايا الأخلاق الكر يمة ما ينجيه. وفيه من الملكات الذميمة ما يهلكه ويرديه. وكيف يجترئ صاحب البصيرة أن يرجح نفسه على الغير، مع إبهام الخاتمة وخفاء الأخلاق الباطنة واشتراك الكل في الانتساب إلى الله تعالى، وفي صدورها وترشحها منه ومعلوليتها ولازميتها له. فالواقف بخطر الخاتمة وإناطة النجاة والهلاك بالبواطن لا يرى لنفسه مزية على غيره، والعارف بكون كل فرد من أفراد الموجودات أثراً من آثار ذاته ولمعة من لمعات أنوار صفاته، بل رشحة من رشحات فضله وجوده وقطرة من قطرات تيار فيض وجوده، لا ينظر إلى أحد بنظر السوء والعداوة، بل يشاهد الكل بعين الخيرية والمحبة[٢].

وقال في عند حديثه عن علاج التكبر ما حاصله :

وعلاج الكبر أن يتواضع المتكبر لله وخلقه، وأن يتحلى بأخلاق المتواضعين، ويفرض على نفسه ذلك إلى أن يقتلع جذور الكبر منها

---

(١) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، ج ٢، ص ١٦٠ – ١٦١، الطبعة الرابعة، مطبعة النعمان– النجف الأشرف،دار النعمان للطباعة والنشر.

(٢) م ن، ج ١، ص ٣٠٦.

بشكل كامل. فإذا ناظره أحدٌ من أقرانه ونطق بالحق، لم يستثقل الإذعان له، بل يبادر إلى الإقرار به والتسليم بمضمونه، بل يتقدم بالشكر لمن عرّفه ما خفي عليه من الحق. كما أن عليه تقد يمهم في المجالس على نفسه بأن يترك صدر المجلس لهم دون نفسه، ويجلس هو في ذيل المجلس مظهراً ارتياحه وسروره من ذلك. وإذا دعاه فقير فليجبه ساعياً في تقديم ما يمكنه من الخدمة لهم، وليوصل حوائجهم إلى منازلهم. وليلبس ثياباً دون شأنه مختلطاً بالفقراء...»[1].

وذكر مثل ذلك عند حديثه عن علاج الرياء والعجب وحب الجاه ونحوها[2].

قال الإمام الخميني قدّس سرّه في هذا الصدد:

«وأفضل علاج لدفع هذه المفاسد الأخلاقية، هو ما ذكره علماء الأخلاق وأهل السلوك، وهو أن تأخذ كلّ واحدة من الملكات القبيحة التي تراها في نفسك، وتنهض بعزم على مخالفة النفس إلى أمد، وتعمل عكس ما ترجوه وتطلبه منك تلك الملكة الرذيلة.

وعلى أيّ حال؛ اطلب التوفيق من الله تعالى لإعانتك في هذا الجهاد، ولا شك في أن هذا الخلق القبيح، سيزول بعد فترة وجيزة، ويفرّ الشيطان وجنوده من هذا الخندق، وتحلّ محلهم الجنود الرحمانية.

فمثلاً من الأخلاق الذميمة التي تسبب هلاك الإنسان، وتوجب ضغطه القبر، وتعذّب الإنسان في كلا الدارين، سوء الخلق مع أهل الدار والجيران أو الزملاء في العمل أو أهل السوق وأهل الحي، وهو وليد الغضب

---

(١) مبحث الكبر وعلاجه، ج١، ص ٣٠٦-٣١٠.

(٢) انظر أبوابها في ج ٢ من جامع السعادات.

والشهوة، فإذا كان الإنسان المجاهد يفكر في السمو والرفعة، فإن عليه- إذا اعترضه أمر غير مرغوب فيه حيث تتوهج فيه نار الغضب لتحرق الباطن، وتدعوه إلى الفحش والسيئ من القول - عليه أن يخالف هواه، وأن يتذكر سوء عاقبة هذا الخلق القبيح، ويبدي بالمقابل مرونة، ويلعن الشيطان في الباطن ويستعيذ بالله منه.

إني أضمن لك بأنك لو قمت بذلك السلوك، وكرّرته عدّة مرّات، فإن الخلق السيئ سيتغير كلياً، وسيحلّ الخلق الحسن في عالمك الباطن، ولكنك إذا عملت وفق هوى النفس، فمن الممكن أن يبيدك في هذا العالم نفسه، وأعوذ بالله تعالى من الغضب الذي يهلك الإنسان في آن واحد في كلا الدارين فقد يؤدي ذلك الغضب - لا سمح الله إلى قتل النفس.

إن من الممكن أن يتفوه الإنسان في حال غضبه بالسوء على النواميس الإلهية. كما أننا رأينا أشخاصاً تلفظوا بما يوجب الحكم عليهم بالردة. ولهذا قيل: إن السفينة إذا كانت في أمواج البحر بغير ربان أقرب إلى النجاة من الإنسان في حال الغضب»[1].

العمل بالضد وتربية الآخرين

كما أن العمل بضد الصفة الراسخة في النفس يؤدي إلى إضعافها انتهاءً بزوالها تماماً، كذلك فإن فعل المربي يحدث الأثر نفسه بالنسبة للآخرين، وهو نفسه يعد محاربةً للأخلاق السيئة والصفات القبيحة.

ومثالاً على ذلك:

١ - احترام الشخص الذي لا يحترمه الناس وتكريمه يؤثر في نفسيته

(١) الأربعون حديثاً، الإمام الخميني، ص ٤٩.

ويخلق ثقة في نفسه.

٢ - وضع الشخص الجبان في ساحات الخطر يدفع به إلى اتخاذ قرارت جريئة ومواقف شجاعة.

٣ - وهكذا بالنسبة للوسواسي إذا ساعدناه على مخالفة أوهامه وتخيلاته فإنه يتغلب عليها.

٤ - ومن هذا الباب التكبر على المتكبر والمغرور فإنه يضطره إلى التواضع والتصاغر.

٥ - ومن هذا الباب أيضاً إبراز المودة والمحبة للشخص الذي لا يحبنا أو يحسدنا يفرض عليه احترامنا.

وإلى غير ذلك من الأمثلة التي ورد في نهج التعامل معها روايات كثيرة، تؤكد جميعها على ما قاله الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت / ٣٤].

وفي ما روي من أدعية عن الإمام السجاد عليه السلام قوله:

«اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآله، وَسَدِّدْني لأَنْ أُعارِضَ مَنْ غَشَّني بالنُّصْح، وَأَجْزيَ مَنْ هَجَرني بالبِرِّ، وَأُثيبَ مَنْ حَرَمَني بالبَذْل، وَأُكافِيَ مَنْ قَطَعَني بالصِّلَة، وَأُخالفَ مَنْ اغْتابَني إلى حُسْنِ الذِّكْر، وَأَنْ أَشْكُرَ الحَسَنَة، وَأُغْضِيَ عَنِ السَّيِّئَة»[1].

وبالطبع، فإن المقصود من هذه الفقرات من الدعاء، وإن كان هو طلب التكامل الروحي والأخلاقي، لكن أثره التربوي واضحٌ جداً. وتلك كانت

(١) الصحيفة السجادية، للإمام زين العابدين عليه السلام، الدعاء العشرون (مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال).

السيرة المستمرة للنبي صلى الله عليه وآله وللأئمة المعصومين من أهل بيته عليهم السلام، وقد تركت آثارها الواضحة على كثير من الناس ممن أنجاه الله تعالى مما هو فيه من انحراف وضلال ببركة سيرهم العطرة عليهم السلام.

ما قدمناه هنا من حديث كان بخصوص تأثير العمل بالضد على الآخرين، ولنا حديث خاص عن تأثير أصل العمل في الفصل الخامس من هذا القسم بعنوان (الأسوة والتأسي).



الفصل الرابع

العبرة

حدود الاعتبار

الذي يظهر من معاجم اللغة وقواميسها[١] أن أصل (عبر) هو الجريان، غير أن موارد استعماله مختلفة. كجريان الدموع، وجريان الماء في النهر، وطي الطريق، وجريان خواطر القلب على اللسان، والانتقال من ظواهر الأحلام إلى حقيقتها في تفسير الأحلام، ونحو ذلك.

قال الراغب الإصفهاني: الاعتبار والعبرة بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد)[٢].

ومما قيل في تفسير هذه اللفظة يتبين أن لـ(العبرة) معنى واسع لا يقف عند حد محدود. وكما هو الحال في بحوث التربية كذلك يقال في عالم الاعتقادات، والاستعمال القرآني على ذلك:

١ – قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف / ١١١].

٢ – قال تعالى : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [النور / ٤٤].

(١) انظر: القاموس المحيط،، والصحاح، والمنجد.

(٢) مفردات غريب القرآن، للراغب الإصفهاني، مادة (عبر).

٣ – قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ [النحل / ٦٦].

وكما هو لائح من الآيات المذكورة فإن ميدان الاعتبار هو مجموع: الطبيعة والتاريخ، ووقائع الحياة الإنسانية، والتي من خلال التأمل فيها يتمكن البصير الحاذق أن ينتقل من حقيقة موجودة في شيء إليها أو إلى مثلها في موجود آخر.

العبرة في عالم الاعتقادات

تقوم العبرة على أساس التشابه والتماثل والتواؤم بين أحداث عالم الخلقة وأسبابها وحقائقها وقوانينها الحاكمة على تلكم الظواهر.

إن الإنسان البصير عندما يرى قدرة الحق في شيء من مفردات الوجود يقربها في سائر المفردات. لأن العالم الذي هو يتحكم في جميع نواحيه النظمُ والوحدةُ والتشابهُ، وتتجلى في جميع جوانبه آثار القدرة والحكمة بكل ما يدعو إلى التعجب والحيرة، يوحي بوحدانيته. إننا لا نجد في نواحي عالم الخلقة وزواياه انفكاكاً وتنافراً بين مفردة وجودية وأخرى، لتكون إحداها محكومة لقانون والأخرى لقانون مغاير. وعلى هذا الأساس أمرنا القرآن الكريم بالتفكر في الكون والطبيعة[1].

---

(١) ومثالاً على ذلك انظر كلاً من: سورة الجاثية﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الآية: ٥، وسورة النحل﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الآيات: ٦٥-٦٩، وسورة الروم﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

كما أنه دعانا إلى التدبر والنظر في ظواهر جزئية، من قبيل طريقة خلق ذكور النحل وعملها النحل، والجمل، والرياح، والمطر، والقمر، والشمس[١]. وهي من النماذج الشائعة في القرآن. وعليه، فإن أحداً إذا نظر بعين الاعتبار إلى أي ظاهرة وجودية ورأى فيها يد القدرة الإلهية، فسيحكم بوجودها في كل شيء.

وقد روي أن هارون الحاكم العباسي طلب في كتاب له من الإمام الكاظم عليه السلام أن يعظه ويوجز. فأجابه عليه السلام بما نصه: «**ما من شيء تراه عينُك إلا وفيه موعظةٌ**»[٢].

وذلك بسبب أن الإنسان إذا نظر بعين البصيرة إلى أي موجود من الموجودات سيرى الله تعالى من خلاله، وسيكتشف عبره جمال الحق.

وأصل العبرة كما تحصل بالنسبة للتوحيد فإنها تتحقق بالنسبة للمعاد وتنفع فيه بشكل كبير. والقرآن الكريم يتحدث في عدة مواضع عن إحياء الأرض بعد موتها، ليقيس عليه موت الإنسان وإحياءه في القيامة، وحثّ الناس على أن يعتبروا به للوصول إلى إمكان الحياة بعد الموت[٣].

كما أنه سبحانه قال في جواب القائل باستحالته: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس / ٧٩].

وتأسيساً على ذلك، فإن التدبر في الخلقة الأولى للإنسان، وكذلك خلق السماوات والإحياء الثاني للطبيعة بعد موتها الشتوي، يذكّر الإنسان بأن تلك

مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ الآية: ١٩.

(١) انظر: سورة فاطر، الآية ٩، وسورة فصلت، الآية ٣٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٤٢٣، نقلاً عن أمالي الصدوق.

(٣) انظر: سورة يس، الآية ٧٨.

القوة التي خلقتها أولاً قادرةٌ على خلقها ثانياً دون تعب ولا نصب. وهذا بحد ذاته أبلغ اعتبار في عالم الاعتقادات.

العبرة وآثارها في تربية النفس

كما أشير في ما مضى فإن أساس العبرة إنما هو التجانس والتشابه بين الأمور. وهذه المسألة تحظى بأهمية كبرى في تربية الإنسان، لأن السنن الإلهية واحدة لا تتبدل ولا تتغير أينما كانت، وهي تجري في الأشياء المتماثلة على نسق واحد. وهذا تنبيه وتحذير كاف للإنسان.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**اعتبروا بما مضى من الدنيا، هل بقي على أحد، أو هل فيها باق من الشريف والوضيع والغني والفقير والولي والعدو، فكذلك ما لم يأت منها بما مضى أشبه من الماء بالماء**»[(١)].

ولعل مراده عليه السلام من هذا المثال النهر الجاري، الذي إذا نظر الإنسان إلى نقطة منه فلن يرى إلا مثلها، وإن بقي ينظر إليه لساعات وساعات.

وأما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فيقول في وصيته لنجله الإمام الحسن عليه السلام: «**استدلَّ على ما لم يكن بما قد كان؛ فإن الأمور أشباه ..**»[(٢)].

أنواع الاعتبار

وعليه، يمكننا تنويع (الاعتبار) بشكل عام، إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الاعتبار بالأمور الحتمية والعامة

إن بعض الحوادث والعوارض لما كانت لازمة من لوازم الحياة الطبيعية

(١) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٢٥، نقلاً عن مصباح الشريعة.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

للبشر، فهي تأخذ طابع الحتمية والكلية، ولكنها في الوقت نفسه، بلحاظ كونها من خواص الإنسان فإنه يغفل عنها ويتناساها. ولنذكر على ذلك بعض الأمثلة:

أ ـ ضعف القوى

إن من القوانين القطعية الحاكمة على الموجودات الحية في الطبيعة، بما في ذلك الإنسان، أن كل موجود يتحرك بما يتناسب ووجوده من نقطة الضعف ويتدرج وصولاً إلى غاية قوته. وعندها يأخذ بعد فترة بالتراجع في سير قهقرائي نحو الضعف في القوى، وشيئاً فشيئاً يصل إلى آخر مراحل الضعف.

إن الشباب والحيوية يعدان من أعظم النعم الإلهية على الإنسان. فالشباب هو ربيع الإنسانية حيث تتفتح قوى الإنسان واستعداداته، بينما الشيخوخة تعني جلوس صاحبها في نهاية سفرة الشباب. والشاب يقوم بأعمال شاقة لا يتوقع من الشيخ القيام بها. وجميعنا نعلم أن العجوز كان ذات يوم شاباً، وهو الآن يتحسر اليوم على ما فاته منه، وعلى ما قضاه من أيام شبابه في العبث واللهو والبطالة والاشتغال بلذات بقيت تبعاتها الثقيلة والمزعجة، في كل ذلك يستشعر أحاسيس الخسارة الكبرى، ولات حين مندم.

وصدق الشاعر[1] إذ يقول:

ألا ليت الشّباب يعود يوماً   فأخبره بما فعل المشيب

إن الشاب الذكي إذا رأى هذه النماذج يستوعب الدرس اللازم بشكل

---

(١) بيت لأبي العتاهية كما في ديوانه.

سريع ، ليقول بينه وبين نفسه: أنا إنسان مثله، ولو عمرت فسأنتهي يوماً ما إلى ما انتهى إليه، لذلك يجب عليّ أن لا أقوم بما يجعلني أتحسر كما تحسر.

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس / ٦٨].

ب ـ الموت

يعتبر الموت أعظم الحوادث المؤثرة في حياة الإنسان على مستوى البناء والهدم. وإن فوات أيام الشباب وإن كان محزناً، لكن الشيخوخة لا تعني غلق أبواب الأمل والتعويض. أما الموت فهو النقطة التي تتلاشى عندها جميع آمال الإنسان، وعنده تتقطع جميع العلاقات الإنسانية الدنيوية. فلا تقبل العود ولا التعويض أو الجبران، لأن خسارتها نهائية، باعتبار أن الحياة بعد الموت، تحمل في طياتها خصوصية الخلود غير المحدود.

ومع أن الموت هو أكثر الحوادث الإنسانية طبيعيةً، وينبغي أن يكون أكثرها أنساً ومعروفيةً وحضوراً في ذهن كل إنسان، مع كل ذلك فإنه في الوقت نفسه قد يقع الإنسان في حالة من النسيان له ذهنياً والتناسي عملياً، كما لو أنه يرى نفسه مصوناً بالمطلق من التلف وأن حياته لن يعترضها خطر.

وفي ذات يوم قال أمير المؤمنين عليه السلام لما رأى شخصاً يضحك في تشييع جنازة: **«كأن الموت على غيرنا كُتب، وكأن الحق على غيرِنا وجب، وكأنّ الذي نرى من الأموات سفرٌ عما قليلٍ إلينا راجعون، نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأننا مخلدون من بعدهمٍ. ثم قد نسينا كل واعظ وواعظة، ورمينا بكل فادح وجائحة»**[1].

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة: ١٢٢.

وفي حديث عنه ﷺ قال: «**ما رأيت إيماناً مع يقينٍ أشبه منه بشكٍّ على هذا الإنسان، إنه كل يوم يودع إلى القبور، ويشيع، وإلى غرور الدنيا يرجع، وعن الشهوة والذنوبً لا يقلع، فلو لم يكن لابن آدم المسكين ذنب يتوكفه، ولا حساب يقف عليه، إلا موت يبدد شمله، ويفرق جمعه، ويؤتم ولده، لكان ينبغي له أن يحاذر ما هو فيه بأشد النصب والتعب. ولقد غفلنا عن الموت غفلة أقوام غير نازل بهم، وركنا إلى الدنيا وشهواتها ركون أقوام قد أيقنوا بالمقام، و غفلنا عن المعاصي والذنوب غفلة أقوام لا يرجون حساباً ولا يخافون عقاباً**»[1].

لذلك لا ينبغي أن تكون المشاركة في التشييع، والتي ورد الحث الأكيد عليها، لغرض التكريم الميت فحسب، وإنما للاعتبار أيضاً وطرد الغفلة.

إن المقبرة هي نفسها أكبر جامعة تربوية، ففيها يتعرف الإنسان على حقائق لا يمكنه تلقيها في أي جامعة أخرى، بشرط أن يكون قاصداً في ذهابه إليها للنظر والتفكر، ويمكث فيها ما لا يقل عن ساعة مشغولاً بذلك.

إنه إذا نظر إلى شواهد القبور وصور الموتى المعلقة سيرى بينهم العجوز والشاب، والفقير والغني، والصالح والفاجر، والظالم والمظلوم، كما سيرى قبوراً قديمةً وأخرى جديدة لمن عاش بعضَ أيام خوالٍ، فإن كان من أصحاب القلوب اليقظة والعقول النيرة فلن يميل نحوٌ شهوات الدنيا ومتعلقاتها، وسيحظى بدروس قيمةً في ذلك.

وبطبيعة الحال، فإن العبرة والعظة التي يحصل عليها الإنسان من قبور الموتى العادين تختلف عن تلك التي يحظى بها من زيارته لمقابر الشهداء.

---

(١) بحار الأنوار، باب لقاء الله، الحديث ٤٠، ج ٦، ص ١٣٧.

فالأولى تقول له إن مكانك النهائي والأساس عندي، فانظر إلى الدنيا وارتبط بها بقدر ما لها من لا قيمة ولكن لا تنسني.

وأما الثانية فمؤداها: إذا كان لابد لحياة الدنيا من نهاية فليس أفضل من أن يختارها الإنسان بنفسه، ليحول موته إلى حياة جديدة له ويهب الآخرين الحياة.

النوع الثاني: تبعات الأعمال وعواقبها

إن العالم الذي نعيشه يقوم على أساس قانون العلية والمعلولية، بحيث لا يقع أمرٌ إلا إذا تحققت أسبابه وتهيأت ظروفه. والحياة الإنسانية ليست مستثناة من هذه القاعدة.

والنتيجة المنطقية للسلوك الصالح في الحياة الدنيا هي الحياة الطيبة والموفقة، وأما اتباع الهوى فلن يعقبه إلا الهلاك والخسران.

وما قلناه له تطبيقات واسعة، وكنموذج على ذلك فإن مَن يراجع المحاكم ويطلع على ما في السجون سيرى بأم عينيه كثيراً من الحقائق والعبر.

ولا بد من التنبيه إلى أننا ذكرنا في فصل (التفكر) هذين العنوانين، غير أن جهة البحث في التفكر هناك كانت نهاية العمر وانقضاء الحياة، وأما هنا فجهته تبعات الأعمال للفرد والجماعة، ليكون ذلك سبباً للاعتبار.

النوع الثالث: الكمالات المكتسبة

يحتاج الإنسان في مسيرة حياته إلى كمالات ليس هو في غنى عنها. وللوصول إلى تلك الكمالات يحتاج كلٌّ واحد منها إلى بذل جهود جبارة ومتواصلة. وأول تلك الكمالات أن يتعرف عليها، ثم السعي في تطبيقها على

حياته العملية والنفسية. وإن أقل ما في مصاحبة الأخيار والصالحين من فائدة للإنسان أنه يتعرف خلال ذلك على آفاق أوسع وأعلى في عالم الإنسانية، وتفتح له نافذة على الفضائل الأخلاقية والإنسانية.

وتأسيساً على ذلك، فإن كثيراً من خصائص الموجود في عالم الطبيعة، من قبيل نعومة الورد، وقوة الجبال، وسعة السماوات والبحار، وسطوع الشمس، وإثمار الأشجار، ومئات الأشياء الأخرى. وكذلك خصائص عالم قبيل: وفاء الكلاب، وغيرة الديوك واستيقاظها في الأسحار، وشجاعة الأسود، ومثابرة النمل، وتعاونها، وعشرات الموارد الأخرى.

كل ذلك جدير بالاعتبار بالإنسان أن يعتبر به. والاستفادة من هذا الأسلوب شائع في نظم الشعراء خصوصاً.

وكنموذج على ذلك قال الشاعر الإيراني سعدي ما تعريبه:

صاح الديك ليلة البارحة

فاستيقظ عقلي ونفد صبري

وخارت قواي وزال عقلي

فقال لي بعض أصحابي

هل وصل الصياح إلى سمعك

أجبته لم أكن أصدق أن صياح الديك يدفع إلى الجنون هكذا

وقلت إن هذا ليس شرطاً للإنسانية

فكيف يكون الطير مسبِّحاً دون الإنسان[١].

---

(١) كلستان سعدي، أخلاق الدراويش.

شرط الاعتبار

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما أكثر العبر وأقل الاعتبار**»[١].

يتفاوت الناس في التعامل مع الأحداث من حيث الاعتبار، فبينما نرى بعضهم يتعظ ويعتبر من أصغر حدث مؤثر بشكل واضح، نرى آخرين يمرون على أشد الأحداث عظةً واعتباراً فلا يتأثر، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: المؤمن إذا نظر اعتبر... والمنافق إذا نظر لها)[٢]، فذاك يعتبر، وهذا يلهو.

ومن هنا، فليس الناس سواء في الاتعاظ والاعتبار والاستفادة من ذلك، وإنما يتعظ منها، كما في القرآن الكريم، أولو الألباب والبصائر وأهل التقوى والاتعاظ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف / ١١١].

ويقول في موضع آخر: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ ﴾[النور / ٤٤].

ويقول تعالى في موضع ثالث: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة / ٦٦].

العبرة وتربية الآخرين

الاستفادة من طريقة الاعتبار لجهة تحقيق أهداف خاصة ذات جذور قديمة في تاريخ البشرية، وبالخصوص من قبل أصحاب السلطة الذي مارسوها لتخويف الناس وتهدئتهم إذا سخطوا، بأنهم سيلحقون بهم أقسى العقوبات.

---

(١) تحف العقول، باب ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) م ن.

ففي بعض الأحيان يجب على المربي إذا ما رأى خطأ بحاجة إلى تنبيه، أن يتجنب النصح والوعظ علانيةً. لأن من شأن اعتماد النصح السري الحدَّ من الوقوع في الأخطاء.

وقد اعتمدت هذه الطريقة في قانون العقوبات الجزائية الإسلامية تحقيقاً لأحد أبعاد التربية للإنسان. وفي القرآن الكريم فرض حضور طائفة من المؤمنين عند إقامة حد الزنا، فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور / ٢].

وفي الأساس فإن المقصود من إقامة الحد المعين ليس فقط معاقبة العاصي، وإنما ردع الآخرين لئلا يقعوا في ما وقع فيه العاصي، وهو شكل من أشكال الاعتبار. ومثالاً على ذلك قال تعالى في مورد السرقة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة / ٣٨].

قال الراغب الإصفهاني: النكال هو الفعل الذي يؤدى فيمتنع غيره[1].

كما أن الله سبحانه أشار في القرآن الكريم إلى أن مسخه فئةً من بني إسرائيل لما عصوا أمره تعالى، وكذلك إهلاكه لفرعون، إنما كان بغرض أن يعتبر غيرهم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة / ٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأٓخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات / ٢١-٢].

(١) أقول أنا المعرب: ليس هذا التعبير في مفردات غريب القرآن وإنما هو تعريب لما فهمه المؤلف من عبارته فترجمه إلى الفارسية، وعربناه نحن. ولكن المضمون مفهوم من مجموع ما قاله الراغب في مفرداته.



الفصل الخامس

الأسوة والتأسي

ضرورة الأسوة

من الامتيازات والخصائص لهذا الإنسان أنه باحثٌ عن الكمال. والحيوانات وإن كان أكثرها في يسير باتجاه كماله اللائق بحاله، إلا أن الاشتغال الدائم بالسير نحو الكمال إنما للإنسان دونها. وذلك لأن هذا السير يتطلب إدراكاً خاصاً وكما أنه بحاجة إلى اختيار، وهو ما لا يتيسر لغير الإنسان.

وفي هذا المسير ثمة مانعان أساسيان، يمنعان السائر والسالك من أصل الحركة أو أنهما يبطئان من سيره، أو ينحرفان به عن مقصده:

المانع الأول: أن من الممكن أن يقع في وهمه تعذر الوصول بالنسبة للإنسان إلى الدرجات العالية وتعذر التخلص من الأهواء النفسانية. و انطلاقاً من هذه القناعة انبرى بعضهم للدفاع المستميت عن (الليبرالية)، وأن على الإنسان أن يقفز على الواقعيات، بل يترسم لنفسه منهجاً لا يقوم على أساس الدين.

ويؤكد أصحاب هذه النظرة على حقيقة أن الإنسان موجود واقع تحت أسر أهوائه النفسانية والواجب عليه أن ينظم حياته على أساس هذه الحقيقة، ليتمكن بكل حرية أن يحقق آماله وأحلامه.

وبالطبع، فإن ضرورة أخذ الواقعية في وجود الإنسان بعين الاعتبار أمرٌ لا غبار عليه، لكن أن يكون الإنسان أسيراً لشروره وأهوائه مطلقاً فذاك ما لا نقر به. بل إن الإنسان موجودٌ وإن كان بطبعه يميل إلى الشرور، مركوزٌ في فطرته وذاته ميلٌ قويٌّ نحو المحاسن والفضائل الأخلاقية. أجل، قد يقع في حركته تغليباً لبعدٍ نفسانيٍّ على حساب بعدٍ آخر، الأمر الذي أدى بهذا البعض إلى أن يعتقد خطأً واشتباهاً أن الليبرالية إنما هي تلك الميول الإنسانية.

إن التعاليم قامت على أساس هذه الواقعية المركوزة في طبيعة الإنسان، وفي الوقت نفسه الذي تسير به واقعيته نحو الكمال المطلوب، يجب ملاحظة اختلاف الاستعدادات الذاتي بين الناس أفراداً وجماعاتٍ، بسبب التعليم والتربية التي حظي بها هذا وذاك، والذي يضع له إطارٍ طموحه ويحدد مستوى كمالاته.

المانع الثاني: أنه في كثير من الموارد تكون الوسائل والطرائق والمناهج العملية للوصول مجهولةً للسائر نحو مقصده، مما يؤدي بالطبع إلى تضييع كثير من الفرص، ويوقع الإنسان في أشكال من الحيرة والضياع.

ودور (الأسوة) في أي علم أو فن أو تكامل إنساني هو إفهام الباحث وتعريفه بطريق الحصول عليها، فكما أني أنا الأسوة وصلت فإن بإمكانك أيضاً الوصول. ومن باب (اسلك ما سلكه مرتادو الطريق) يخرجه من تردده وحيرته، ليأخذ بيده إلى النجاة من خلال اختيار أكثر الطرق مناسبةً له وقرباً منه، ومن خلال التعرف على الموانع والمنعطفات والعقبات الكأداء، والتعرف على أسباب التوفيق التي نالها الأسوة. وليضع بين يديه التجارب التي مرّ بها.

وعليه، فإن كل ساعٍ في فن من الفنون إذا ما أراد التعرف على الأرضية

المناسبة للنمو والنضج في سبيل كسب المقامات، يلزمه انتخاب (أسوة) في ذاك الفن، وهو ما لا غني عنه.

وفي هذا باب نيل الكمالات الإنسانية يقول القرآن الكريم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب / ٢١].

وفي موضع آخر يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب / ٦]. والضمير هنا يرجع إلى إبراهيم عليه السلام ومن معه.

فلسفة الميل نحو الأسوة

قد يشعر الشخص بالنقص والتخلف نتيجةً لفشلٍ أو قصورٍ روحيٍّ، الأمر الذي قد يدفعه بشكل لا شعوري إلى تعويضه بأَن يضع نصب عينه شخصيةً محترمةً ونجيبةً في الوسط الاجتماعي ويحاكيها ويقلدها في العمل والسلوك، لتشمل محاكاتُهُ حتى طريقةَ المشي والحديث ونحو ذلك.

وإذا تجاوزت المحاكاة الحد المعقول فإنها تتحول إلى الإضرار بشخصية المحاكِي والمقلِّد من حيث السلامة والتوازن النفسي. وذلك لأنه في هذه الحالة سينتهي إلى أن تتلاشى شخصيته إلى حد الاغتراب والذوبان، وصولاً إلى افتقاد الحياة الطبيعية والعقلانية. وأما في صورة الاعتدال والتوازن في المحاكاة دون إفراط ومبالغة، فسيكون أمام المحاكِي فرصةً جيدةً للتحلي بالصفات الإيجابية والأخلاق الحسنة لمن يحاكيه، ويحظى بمنافع ذلك.

وقد يستفاد من هذه الطريقة في علم النفس ضمن (الآليات النفسية) التي تعتمد للحصول على ما نحتاج الحصول عليه ويسمى بـ(المحاكاة)[1].

وقد يراد بـ(الأسوة) ما يتجاوز المرحلة المذكورة، وذاك عندما يقوم الشخص العاقل والذكي، بعد أن يكون قد قام بالتدقيق والتمحيص، أن يقوم بتشخيص طريق حركته في الحياة وتحديد هدفٍ يتجه نحوه، فيختار شخصاً يتأسى به لتسهيل تحقيق الهدف والتعرف على مساره، مستلهِماً من مسيرة حياته وفكره.

وهذا النوع من التقليد والمحاكاة مقبولٌ إلى حدٍّ كبيرٍ، لأننا نحاكيها بعد التحقيق والدراسة، من أجل الوصول إلى كمالٍ أرقى والتحليق إلى عالم أجمل، دون المحاكاة العمياء والساذجة التي نقوم بها للتعويض عن النقص النفسي والروحي.

كيفية التأسي بالأئمة عليهم السلام في كل زمان

والسؤال المهم هنا هو: كيف نتمكن من جعل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام، مع أنهم عاشوا في زمن مضى، أسوةً لنا في حياتنا المعاصرة؟ مع وجود اختلافات كبيرة بين طريقة حياتهم وطريقة حياتنا.

وإجابةً على هذا السؤال ينبغي الالتفات إلى أن القيم الإنسانية ذات بعدين:

أحدهما: ثابت.

والآخر: متغير.

---

(١) انظر: رشد وتكامل شخصيت (بالفارسية)، دكتور مهدي نوري، انتشارات دانشكاه آزاد إسلامي كرج، ص٤٩ - ٥٣.

فالثابت من البعدين هو تلك الجهة المتعلقة بإنسانيته. والمتغير هو ما تعلق بشكله وملبسه. والزمان والتغيير وتبدل الأوضاع إنما يؤثر في التحول على المتغير، أما الثابت فإنه أصله وحقيقة القيم فيه فلا ينالها شيء من التأثير والتحول بسبب الزمان والمكان.

ومثالاً على ذلك فإن (التعلم) هي قيمة إنسانية وإسلامية عُليا، وبسبب محدودية العلوم وبساطة الحياة الاجتماعية وتواضع الحاجة الإنسانية... في زمن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، لم ينتشر سوى العلم الديني وبعض العلوم المفيدة مما تعارفوا عليه في تلك الأزمان. ولهذا اقتصرت كلماتهم عليهم السلام على التأكيد على ذلك، دون أن يعني أن الإسلام لا يحث إلا عليها أو أنها لا تستوعب سائر العلوم مما يصب في المنفعة الإنسانية.

وقل مثل ذلك عن (الزهد) الذي هو قيمةٌ إنسانيةٌ ساميةٌ أكّد عليها الإسلامُ. ولكن الزهدَ تجلى في سير المعصومين عليهم السلام بصورة تتناسب وما كان سائداً آنئذٍ من أوضاع اقتصادية واجتماعية. وتلك الصورة لا تناسب ما نحن عليه الآن. ولو كان أئمتنا الطاهرون عليهم السلام بين ظهرانينا الآن بما يحيط بنا من أوضاع وطرائق حياة، لم نشك أبداً في أن الزهد الشرعي سيتجلى بما يتناسب ومقتضيات العصر.

لذلك فإننا حينما نتحدث عن تأكيد النصوص الشرعية على وجوب التأسي بالسيرة العطرة للمعصومين عليهم السلام في تجسيد القيم الدينية، فليس معنى ذلك أن ثمة صورة واحدة تعبر عنها فقط بحيث يجب الالتزام والتقيد بها، حتى أن أحداً لو لم يرغب، أو لم يتمكن، من الالتزام بها بذاك النحو فإنها تسقط من حسابه، بل إن عليه أن يراعي في المسائل الأخلاقية، الثابت والمتغير، كما هو الحال في بعض المسائل الفقهية.

وعلنيا أن نولي شريحة الشباب عناية خاصة للتعريف بالأسوة الشرعية.

وثمة أمرٌ وهو أن أسوتنا الرئيسية، في التربية والتكامل الإنساني، هو النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومون عليهم السلام، غير أن هذا لا يعني أن على الإنسان السائر نحو الكمال أن لا يستفيد، في مراحل تكامله، إلى جانبهم عليهم السلام من نماذج أخرى في ما يتعلق بالحياة والطرائق العمل والسلوك.

إن قادتنا المعصومين عليهم السلام وعلماءنا المتدينين العارفين بزمانهم المتقين، جديرون بأن نتأسى بهم باعتبارهم أمناء على دين الناس ودنياهم، وينبغي أن نطرحهم في ثقافتنا العامة على هذا الأساس[1].

وعلى أساس هذا فإن الاقتداء بالأئمة المعصومين عليهم السلام يتوقف على الاقتداء والتأسي بأساطين العلم والتقوى خريجي مدرسة القرآن ومعارف أهل البيت عليهم السلام على مر العصور.

ومن باب المثال فإن الإمام الخميني قدس سره كان يستلهم من الشخصية البارزة للشهيد المدرِّس، الذي يمكن القول إن أحداً من علماء الدين والسياسة لم يؤثر، في شخصيته الجهادية والسياسية، كما أثر فيها السيد المدرس العالم المجاهد والبارز. فقد كان الإمام الخميني قدس سره يجل ويحترم بشكل كبير شخصية السيد المدرس قدس سره.

وفي هذا الصدد قال قدس سره:

«... كانوا يخافون من المدرِّس. كان المدرِّس إنساناً. لقد استطاع شخص واحد [المدرس] تعطيل مشاريعه [رضا بهلوي]. شخص واحد

---

(١) وسائل الشيعة، ١٨، أبواب صفات القاضي، باب٨.

تمكن من الوقوف بوجه جميع أعضاء البرلمان...»[١].

وقال قدس سره:

«شخص واحد إذا كان مطبقاً لتعاليم القرآن بشكل جيد، يمكن أن يقوم بما قام به المدرِّس...»[٢].

الركنان الأساسيان للتأسي

من يُختار (أسوة) من قبل شخص، فإنه يؤثر في شخصية مَن يقتدي به لسببين:

الأول: أنه يؤثر في قلب المتأسي ويأسره.

الثاني: أن عمله وسلوكه يكون نصب عيني المتأسي.

والسببان يمكنهما تعبئة جميع الاستعدادات والقوى الإنسانية في شخص المتأسي، لتقريبه من الأسوة. ودور المحبة القلبية هو التسريع نحو الحركة باتجاه المواءمة بين سلوك المتأسي والأسوة.

وتأسيساً على ذلك، فإن علينا تجاه النبي صلى الله عليه وآله وأئمتنا المعصومين عليهم السلام الذين هم قدوتنا وأسوتنا تربوياً وتكاملياً، وظيفتين:

١ - المودة

حكى القرآن الكريم على لسان كل واحد من الأنبياء عليهم السلام قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣]. وهذا القول ينقل بشكل

(١) صحيفة النور، ج٧، ص٦٣.

(٢) م ن، ص ٢٣١.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، وغيرها.

قاطع وصريح. لكنه حينما يتحدث عن الرسول ﷺ يستثني شيئاً واحداً وهو محبة قرباه وأهل بيته، قال تعالى : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى / ٢٣].

وفي آية أخرى يشار إلى حقيقة أن هذا الأجر الذي طالب به في مقابل رسالته لا يعود بالنفع إليه، وإنما إلى المحبِّين أنفسهم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ / ٤٧].

٢ – العمل على وفق أقوالهم

أما الوظيفة الهامة الأخرى فهي العمل طبقاً لأقوال مصاديق (الأسوة) وإرشاداتهم. وفي هذه الحالة فقط يتجسد عنوان التشيع لهم، حيث يجتمع الحب والعشق من جهة، والتأسي العملي من جهة أخرى.

وعليه، فللتأسي ركنان لابد من توفرهما معاً، وفي حال فقدان أحدهما فثمة إشكال في تحقق عنوان (التأسي).

وفي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه روى عن أبيه الإمام الباقر عليه السلام قوله: «... **من ائتمَّ بإمامٍ فليعمل بعلمه**»[1].

وقد وردت أخبار شريفة كثيرة تؤكد على وجوب مودة أهل بيت العصمة عليهم السلام، وفي الوقت نفسه أكدت على أن المحبة وحدها بدون عمل لا تكفي لتحقيق عنوان (التشيع) في الإنسان. وحقيقة الأمر هي أن العشق والمودة القلبية ليست سوى محرِّك ودافع نحو الإسراع في المواءمة بين المتأسي والأسوة، على مستوى الصفات والأفعال الإنسانية.

---

(١) الأمالي، الشيخ الطوسي الابن، ص ٧٢٢، ط الأولى، نشر دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، قم المقدسة.

وفي الخبر عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أن جماعةً استأذنوا على الإمام الرضا عليه السلام وقالوا إنهم من شيعة علي عليه السلام. فلم يأذن لهم لعدة أيام، ثم أذن لهم بعد ذلك، وقال لهم: «**ويحكم إنما شيعة أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين وسلمان وأبو ذر والمقداد وعمار ومحمد بن أبي بكر، الذين لم يخالفوا شيئاً من أوامره**»[١].

الدعوة العملية إلى الفضائل

كما أن التأسي والاقتداء بالأسوة الحسنة من موجبات الكمال الإنساني، كذلك فإن اعتماد طريقة (الأسوة) نفسه يعتبر أفضل الطرائق الفعالة في الإصلاح والتربية الفردية والاجتماعية.

إن ما يهدف إليه المشروع الإسلامي ونظامه التربوي من جهود المصلحين الاجتماعين أن لا يقفوا عند حدود الإرشاد والتبليغ بالقول، بل يتجاوزوه إلى أن يكونوا هم أنفسهم مجسدين عملياً لما يدعون إليه من تعاليم أخلاقية، وأن يكونوا سباقين ومبادرين في هذا المجال. فيتصرفون على أساس معارف القرآن وتعاليمه، ليكونوا دعاةً للأمة إلى الصلاح بأعمالهم وحسن أخلاقهم، باعتبارهم أسوة حسنة لعموم الناس.

وفي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظتُهُ عن القلوب كما يزلُّ المطرُ عن الصفا**»[٢].

وفي خبر آخر، قال: «**كونوا دعاةً الناس بأعمالكم، ولا تكونوا دعاةً بألسنتكم**»[٣].

---

(١) بحار الأنوار، باب أن للإيمان درجات ومنازل، الحديث ٣٩، ج ٢٢، ص ٣٣٠.

(٢) أصول الكافي، كتاب العقل والجهل، كتاب فضل العلم، باب استعمال العالم لعلمه، الحديث ٤.

(٣) قرب الإسناد، فصل أحاديث متفرقة، الحديث ٢٥٥، ص ٧٧.

وأن يكون الإنسان قدوةً وأسوةً في الأخلاق والعمل والدور الأساسي فلذلك في التربية أبعادٌ واسعةٌ. ابتداءً من الأسرة وتأثير سلوك الأبوين على الأبناء، مروراً بالمعلمين والمربين في المدارس والجامعات ومؤسسات التربية والتعليم، وصولاً إلى رؤساء الإدارات والمؤسسات، وعلماء الدين انتهاءً بالمسؤولين الكبار والقيادات في النظام.

وتتأكد أهميةُ الأسوة بخاصة في المورد الأخير أكثر مما هو في الموارد الأخرى، لأن تأثيره عامٌّ وشاملٌ. فإذا كان المسئولون في الحكومة صالحين مؤدِّين لواجباتهم، وباعتبار (الناس على دين ملوكهم) فإن عامة الناس المواطنين سينحون نحو الإصلاح ويعتادون عليه شيئاً فشيئاً. أما في حالة وقوع هؤلاء المسؤولين في الغفلة عن أنفسهم وتزكيتها ومراقبتها، أو اعتورهم الضعف وابتلوا بالميل إلى الدنيا والهوى فسيكونون، بشكل أو بآخر، سبباً في نزع لباس الصلاح عن جسد الأمة، ووقوعها في هوة الفساد. آنئذٍ لن يجدي نصح الناصحين، وسينتهي حال الصالحين إلى الضعف والتلاشي، وسيتبوأ سدة الرئاسة والمسؤولية أعداء القيم الإنسانية.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وليست تصلح الرعيةُ إلا بصلاح الولاة**»[1].

وقال الإمام الخميني قدس سره، في بيان التأثير الكبير لوجود العالم الرباني بين الناس:

«إذا انحرف العالمُ قد تنجر الأمة إلى الانحراف، أما إذا كان من أهل التهذيب مراعياً للأخلاق والآداب الإسلامية فسيكون سبباً في هداية الأمة وتهذيبها.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.

كنت أتردد على بعض المدن أثناء الصيف، وكنت أرى أهلها في منتهى الأدب والتدين، وعرفت أن السبب في ذلك وجود عالم صالح متقٍ في أوساطهم. إن العالم إذا كان ورعاً وصادقاً مستقيماً، وكان يعيش بينَ جماعة من الناس، في مدينة أو قرية وغير ذلك، فإن وجوده بينهم سيكون سبباً لتهذيب الناس وهدايتهم، حتى لو لم يكن من أهل التبليغ بلسانه»[1].

* * *

(١) الجهاد الأكبر (بالفارسية)، ص ١٦. انتشارات مؤسسه تنظيم نشر آثار إمام خميني، ط ٣.



الفصل السادس

الرفق والمداراة

ثبات الأخلاق

وفقاً للنظام الأخلاقي الإسلامي فإن جميع القيم الأخلاقية المرضية حقيقية وشمولية، لا تتغير بتبدل الأوضاع والظروف وزمانياًّ أو مكانياًّ. وبعبارة أخرى: إن النظرة الدينية للأمور الثابتة والحقيقية والأصيلة، مما هو جدير بالاتباع، لا يقع تحت تأثير المتغيرات، ولا تتبدل ماهيته بسبب الظروف الطارئة.

وعلى النقيض تماماً من ذلك مدرسة (پوزيتويسم / الواقعية)، التي ترى في هذه الأمور قابلة للتغير وفقاً للرؤية الاجتماعية والأحكام العرفية. وأن المعيار والملاك في الحسن والقبح هو القبول والرد من قبل الناس، ويدعمون نظريتهم هذه بالمثال التالي: لو أننا أعددنا بطاقات حمراء وأخرى خضراء واخترنا عشرة أفراد لاختبارهم، وطلبنا من تسعة منهم أن يقول كل واحد منهم إذا رأى البطاقة الحمراء إنها خضراء، فسنجد أن الشخص العاشر سيكرر ما طلبناه من التسعة دون أن نطلب منه شيئاً.

وتأسيساً على ذلك، فإن القضايا الأخلاقية تسير على هذا النظام والنسق، والإنسان الأخلاقي هو الشخص الذي يتبنى فكرياً ما يدور في

محيطه ووسطه الاجتماعي، ودون هذا التغيير بين وسيط وآخر لا يوجد ما يسمى بـ(الأخلاق)!

وبالطبع، فإن هذا المنطق المطروح في الأوساط الغربية كمدرسة فكرية في عالم الأخلاق، قد يلقى رواجاً في بعض أوساطنا الاجتماعية، وذلك حينما يقال: حشر مع الناس عيد[1].

ولسنا بحاجة إلى بذل جهد لتبيان بطلان هذه النظرية وهذا المنطق من الزاوية الدينية، فذاك من أوضح الواضحات، كما أننا لسنا بصدد مناقشة ذلك في هذا البحث، وإنما أردنا من الإشارة إليها التعريفَ بالقيم الأخلاقية وأصالتها وثباتها من ناحية دينية. والإشارة إلى أن الأخلاق تدور مع الحق حيثما دار، لا مع القبول الاجتماعي والرضا الشعبي كما هو الحال في المدرسة (پوزيتويسم / الواقعية).

الإنسان المطلوب قرآنياً

بعد ما قدمناه اتضح أن الإنسان المطلوب قرآنياً هو من تمكن من المواءمة بين سلوكه وسيرته من جهة وتعاليم القرآن ومعارفه من جهة أخرى، وتمكن من تحقيق التناغم بين حالاته الروحية ووضعه النفسي وبين ما يطرحه القرآن من قيم في هذا الصدد، ليس في الوضع المناسب والملائم فحسب، بل حتى في الأوضاع المعاكسة، وليس في الوسط المتدين فقط، بل حتى في الأوساط المنحرفة والملوثة بأشكال الفساد. بحيث يتمكن من تجسيد تلك القيم مدعومة بإيمانٍ تامٍّ وتدينٍ صادقٍ حتى في المجتمعات الغربية والأجنبية فلا تزل له قدم ولا يقع في فصام.

---

(١) اختار المؤلف قولاً شائعاً بين الناطقين بالفارسية، هو: خواهى نشوى رسوا، هم رنك جماعت شو)، وترجمته الحرفية هي: إذا أردت أن لا تفتضح فساير الناس. وقد استبدلناه بما هو شائع في الوسط العربي مؤدياً نفس الفكرة.

وقد جاء في القرآن الكريم قصة أصحاب الكهف كأبطال في نبذ الشرك وعقائد المشركين الشائعة آنذاك، وكرموز ثاروا في وجه واقع فاسد، اضطروا في نهاية الأمر، وبعد تحمل أصناف الأذى والعذاب، إلى اللجوء إلى الكهف لحفظ إيمانهم وقيمهم المقدسة، مضحّين في سبيل ذلك بكل غالٍ ونفيسٍ، حتى بَجَّلهم الله بما جاء في السورة المباركة[1].

كما يمكن أن نورد قصة النبي يوسف عليه السلام كـ(أسوة) لجميع الناس في الجهاد والمقاومة للأهواء والفساد والخيانة، في ظرف تهيأت فيه جميع أسباب الانحراف. وأورد قصته لتستوعب سورة كاملة، حملت اسمه الشريف، ليستذكرها الناس ويتعلموا منها ويستلهموا الدروس والعبرة.

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف / ٣٣].

وفي مقابل ذلك تحدث القرآن الكريم عن فئة من الناس لا ثبات لهم على مستوى القيم الأخلاقية، بحيث يتلونون في كل مناسبة بما يناسبها. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة / ١٤-١٥].

إن الإنسان المطلوب قرآنياً، وتبعاً لرسوخ الإيمان في قلبه وتغلغل الفضائل الإنسانية إلى أعماق روحه، في مختلف أطوار حياته على اختلافها هو الملتزمُ بقيمه والثابتُ عليها على نسق واحد. لا فرق عنده في ذلك بين أن يكون غنياً أو فقيراً، سليماً أو مريضاً، نافعاً له مادياً أو مضراً.

أما الإنسان الذي لم يتحل بالأخلاق الكريمة في سويداء قلبه ولم تمتزج

(١) انظر: سورة الكهف الآيات ٩-٢٦.

بروحه فسيكون حاله حال من قال عنه القرآن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج / ١١].

ويقول الإمام السجاد عليه السلام في واحد من فقرات دعائه في طلب مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال: «... **واجعلني من أهل السداد..**»(١).

وعليه، فإن الإنسان الكامل - في الرؤية الإسلامية - هو: مَن يستطيع الثبات على القيم القرآنية في جميع الأحوال والظروف، والذي لا تؤثر فيه الضغوط والظروف المعاكسة ليتخلى عنها. وهذه المرتبة من الكمال لا تُنال بغير ترسيخ وتثبيت الصفات الإنسانية في النفس.

دور الرفق في تثبيت الأخلاق

من الأساليب والطرق الهامة لتأكيد وتثبيت الأخلاق مراعاة مبدأ الرفق والمداراة في التعامل مع النفس، في ما يتعلق بأداء العبادات والشؤون التربوية.

إن الاعتقاد والإيمان ليسا من الموضوعات التي يمكن فرضها بما يفوق طاقة الإنسان. وإنما يتطلب ذلك زمناً وفناً، خصوصاً إذا أردناه بمستوى المشاعر الصادقة وتحول القيم إلى ملكات تنتظم في الروح. فلا الاستعجال يوصل إليها، ولا قلة الصبر أو القوة يعينان على تحقيقها.

وفي وصية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام جاء: «**يا علي! إن هذا الدين متينٌ، فأوغل فيه برفق. ولا تبغِّض نفسك إلى عبادة ربك [فـ] إن المنبتَّ - يعني المفَرِّط - لا ظهراً أبقى، ولا أرضاً قطع. فاعمل عمل مَن يرجو أن يموت هرماً، واحذر حذر من يتخوف أن يموت غداً**»(٢).

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء العشرون.

(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الاقتصاد في العبادة، الحديث ٦.

وفي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال:

«مرّ بي أبي وأنا في الطواف وأنا حدثٌ، وقد اجتهدتُ في العبادة، وأنا أتصاب عرقاً.

فقال لي: يا جعفر! يا بني! إن الله إذا أحب عبداً رضي عنه باليسير»[١].

وفي وصية للإمام علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام لما حضرته الوفاة، قال:

«واقتصد في معيشتك، واقتصد في عبادتك، وعليك بالأمر الدائم الذي تطيق»[٢].

لذلك كله، فإن تكريس حالة التخلق بالأخلاق الحسنة يجب أن تكون بالهوينا وشيئاً فشيئاً. فأولاً قلة العمل، ثم سهولته لكي تقبله النفس ولا تأباه، مقروناً بالنية الصادقة ومعرفة الله تعالى، ثم الاستمرار على ذلك. وحينئذٍ يُتوقَّع للعامل بذلك أن يرى نتائج عمله.

ففي حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام قال: **«إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض»**[٣].

وقريب منه ما قاله عليه السلام في حكمة أخرى: **«فإنَّ القلبَ إذا أُكره عمي»**[٤].

(١) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الاقتصاد في العبادة، الحديث ٦.

(٢) مستدرك سفينة البحار، مادة (قصد).

(٣) نهج البلاغة، الحكمة :٣١٢.

(٤) نهج البلاغة، الحكمة: ١٩٣.

التساهل أو الرفق والمداراة

قد يختلط على البعض الرفق والمداراة في الدين والتساهل، فهل هما شيءٌ واحدٌ أم أن ثمة فرقاً بين الأمرين؟

ومن حيث المبدأ هل التساهل في المسائل الشرعية أمرٌ حسنٌ أم قبيحٌ ؟

والجواب:

أولاً: إن دائرة المداراة والرفق، كما يستفاد من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، في حدود النوافل والمستحبات، أما الواجبات فلا مجال للتساهل فيها إلا في حالات الضرورة الشرعية.

ثانياً: أن الأمر المهم الذي يجب الالتفات له واستفادته من وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام السابقة، هو منزلة (الرفق) في المنظومة الفكرية الإسلامية، وكذلك الفرق بينه وبين التساهل، من خلال قوله صلى الله عليه وآله: «**فأوغل فيه برفق**». والإيغال - لغةً- هو السرعة في السير، أما الرفق فقد فسر بأنه ضد العنف[١].

فما هو وجه التناسب بين كون الدين متيناً من جهة، وبين سرعة السير المصحوب بالرفق من جهة أخرى؟ وكيف يجتمع السرعة قي السير مع الرفق؟

ولنوضح المطلب بمثال:

لنفترض طريقاً مستقيماً رصف بطريقةٍ متقنةٍ جعلت السير عليه سهلاً وموصِلاً بسرعةٍ فائقةٍ، وقد زوِّد بعلاماتٍ مروريةٍ موضِّحةٍ. إن مثل هذا

(١) انظر: الصحاح، مادة (وغل) و مادة (رفق).

الطريق إذا قاد السائق الماهر سيارته عليه فإنه سيتمكن من السير عليه بسرعةٍ فائقة وبسلاسةٍ، وبخلاف ذلك لو كانت الطريقُ مملوءةً بالحفريات والنتوءات والالتواءات، فإنه لن يتمكن من السير عليها بسرعةٍ، بل سيعاني من مجرد السير فوقها.

إذن، هناك ارتباط وثيق بين الإتقان في رصف الطريق والسرعة في السير فوقه بوثوقٍ وراحةِ بالٍ. ومن هنا يتبين لنا خطورة التساهل والفرق بينه وبين الرفق، لأن أثر التساهل، مهما كان صغيراً، سيُلحق الضرر بصاحبه بشكلٍ مباشرٍ غير قابل للإصلاح.

إن سهولة الدين التي بعث بها رسول الله ﷺ هو بمعنى انسيابية الطريق. وهذا يختلف عن التساهل والتسامح بالنسبة التعاليم والأحكام الشرعية.

وختاماً، فإن هذه الرواية قد أوضحت بشكل رائع العلاقة بين الرفق وتجنب العنف والشدة مع النفس، وفي الوقت نفسه أبانت عن الاحتياط والجدية في الأمور، بحيث يكون الحاكم على حياتك أيها الإنسان هو حس البقاء إلى حين الشيخوخة. وبعبارة أخرى: لا تتشدد مع نفسك، ومراقبة النفس وتجنب المعاصي، كما لو كنت ستموت الآن.

الرفق وتربية الآخرين

إن التعامل اللائق المصحوب بالصفح وسعة الصدر هو من الصفات الضرورية والهامة للمربي الجيد. أما التشدد والتعجرف وتبني سياسات عملية تفوق طاقة الإنسان أو الجماعة التي نربيها، وعدم مراعاة مقامات الأشخاص منازلهم وأحوالهم فسيكون سبباً في إلحاق صدمات عاطفية لهم وسيقوض جسور المحبة بينهم وتدمر أسس الروح والأخلاق.

لقد تظافرت الروايات بما يتعلق بـ(الرفق) ومراعاة أحوال الناس، بخاصة في مجال الهداية والإرشاد[1]. ونكتفي بنقل روايتين في هذا الصدد:

١ - قال رسول الله ﷺ: **«لا تُكرِّهوا عبادة الله إلى عباد الله»**[2]. وذلك من خلال دعوتهم وحملهم إلى ما لا يطيقون.

٢ - وعن عبد العزيز القراطيسي، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام:

«يا عبدالعزيز! إن الإيمان عشر درجات؛ بمنزلة السلم، يصعد منه مرقاة بعد مرقاة. فلا يقولَنَّ صاحبُ الاثنين لصاحب الواحد: لستَ على شيءٍ. حتى ينتهي إلى العاشرة. فلا تُسقِط مَن هو دونك فيسقطَك مَن هو فوقك، وإذا رأيت مَن هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق، ولا تحملنَّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنَّ مَن كسر مؤمناً فعليه جبره»[3].

* * *

(١) انظر: أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الاقتصاد في العبادة.

(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الاقتصاد في العبادة، الحديث ٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٦٩، الحديث ٢١٢٤٤.

الفصل السابع

المؤاخذة والتأديب [المعاقبة]

تربية النفس ودور التأديب والمعاقبة

تربية الإنسان وتهذيبه يواجهان عقبتين كبيرتين:

الأولى: أن الطبيعة الإنسانية، بلحاظ كونها ذات بعدٍ ماديٍّ وحيوانيٍّ، تميل نحو تلبية رغبات الأهواء النفسانية دون قيدٍ أو شرطٍ. والحد من تلك الأهواء والنزعات، التي تتنافى بطبيعتها وحقوق الآخرين، بحاجة إلى جهدٍ لأن النفس ترغب في حيازة كل شيء لها.

إن الدور الوظيفي للبحوث الأخلاقية يتمثل في:

أ ــ الحد من الحرية المطلقة في الميل نحو أي رغبة محرمة، وتوجيهها لمصلحة والمبادئ الإنسانية.

ب ــ وإلى جانب ذلك الحد من المبالغة في الرغبات لمصلحة الحقوق الاجتماعية والأمن الاجتماعي.

وهاتان مهمتان لا يخفى على مطلعٍ صعوبتهما.

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان إذا تخلق بصفات قبيحة لفترة زمنية طويلة، حتى أصبحت طبيعة ثانية له واستقرت بين جوانحه وفي وجدانه،

فسيجد صعوبةً بالغةً في فعل ذلك لإحلال صفات فاضلة بدلاً عنها، وإن لم يكن مستحيلاً.

إن الإنسان، بملاحظة هاتين العقبتين، سيكون بأمسّ الحاجة إلى التغيير الجوهري والجاد في ذاته لبلوغ هدفه السامي، إلى جانب ما هو بحاجة إليه من همة عاليةٍ وإرادةٍ صلبةٍ، وذلك لمقاومة حالة الكسل والركود للانتقال إلى الفاعلية والتغيير.

وفي هذا الصدد فسيكون التشجيع والإشادة والمحبة والتكريم ذا أثر بالغ لتحقيق الهدف، بخاصة للأشخاص المتوسطين والعاديين ومن في مرتبة أقل.

ودور (الأدب والعقاب) هامٌّ جداً في شأن التربية، لكن تأثير التشجيع وأمثاله سيكون أشد. مع عدم إغفال العقاب في محله.

والأمر الهام الذي يجب أن يشار إليه هنا هو أن التشجيع والاستحسان يؤثر ويناسب، غالباً، في تربية الآخرين. أما في خصوص تربية النفس، فإن التشجيع والتكريم والمكافأة على ما تقوم به من معروف وأعمال حسنة، وإن كان مطلوباً ومؤثراً ونافعاً في الدنيا والآخرة، لكنه قد يوقعنا في الغرور والعجب ويؤدي بنا إلى الغفلة. كما أن تأديب أنفسنا وعقابها على ما نقع فيه من قبائح على ما نقوم به سيكون نافعاً ومفيداً أيضاً.

ولهذا السبب جاء في أخبار المعصومين عليهم السلام التحذير من الاعتماد والركون إلى ما نقوم به من أعمال صالحة وإن كثرت[1].

ويقول الإمام السجاد عليه السلام في بعض دعواته: «**اللهم صلِّ على محمدٍ**

---

(١) انظر: وسائل الشيعة، ج١١، ط مكتبة الإسلامية، طهران، الطبعة الخامسة، ص١٤٥، ح١٣ و ص٢٤٦، ح٨ و ص٥٤٣، ح١ و٣ و ج١، باب ٢٢ و ٢٣، ص٧١ - ٧٩.

وآل محمد وحلّني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتقين في بسط العدل ... واستقلال الخير وإن كثر من قولي وفعلي، واستكثار الشر وإن قلّ من قولي وفعلي ...»(١).

أما العلامة السيد بحر العلوم قُدِّسَ سِرُّه، في الرسالة المنسوبة إليه، والتي كتبها في السير والسلوك، فإنه يشير إلى (المؤاخذة) ضمن حديثه عن شرائط السير والسلوك إلى الله، ويقول: وهي عبارة عن العتاب والخطاب، بل الزجر والضرب والعذاب، في مقام التنبه والتأديب والسياسة، بعد ظهور الخيانة. ويُحكى أن أحد الأكابر كان يوصي بوضع عصا مكان الصلاة؛ لاستعمالها في مقام تأديب النفس، بعد محاسبة النفس، وظهور خيانة.

ومرّ آخر في طريق فرأى عمارةً جديدةً، فسأل: متى بنيتموها، وبسبب المؤاخذة على سؤال لغوي لم يشرب ماء مدة سنة.

وقام شخصٌ بالعبادة أربعين سنة للاعتذار عن شكواه من حرارة الجو في ومان عيسى عليه السلام.

وإذا كانت الخيانة الصادرة هي أمر توجد عليه عقوبة في الشرع، فليسرع إلى تنفيذ تلك العقوبة(٢).

وقد حكي عن المرجع آية الله السيد البروجردي قُدِّسَ سِرُّه أنه نذر لله تعالى أن يصوم سنةً كاملةً متى ما غضب لغير الله. وفي ذات يوم أغاظه بعض طلابه في مجلس الدرس فغضب. ولم يكن من سماحته إلا أن يفي بنذره فصام سنة كاملةً في أجواء قم الحارة.

---

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء العشرون [دعاء مكارم الأخلاق].

(٢) رسالة في السير والسلوك، السيد محمد مهدي بحر العلوم، شرح وتعليق السيد حسن مصطفوي، ص ١٠٣-١٠٤.

التأديب والمعاقبة وتربية الآخرين

من المسلّم بين اختصاصيي التربية والتعليم هذه الأيام أن التحبب والتشجيع عنصران مهمّان في ذلك، لكنهم لا يغفلون تأثير ودور الأدب والمعاقبة. والحق أن أكثر ما يهمهم ويعنيهم في هذا المجال هو خطورة اعتماد المعاقبة في غير موضعها وبغير دراسة، حيث سيكون لها آثار سلبية لا يمكن إنكارها.

وفي التعاليم الإسلامية ثمة عناية فائقة في أمر التربية للتحبب والتكريم، سبق أن أشرنا إليه في ما مضى[١].

لكن يجب الإشارة إلى أن النظام التربوي الإسلامي لا يرفض التأديب والمعاقبة، لكنه لا يجيز اعتمادها إلا مع مراعاة سلسلة من الشروط.

ويجب الالتفات إلى أن المنطق الإسلامي يقوم على أساس أن لا مالك حقيقياً للموجودات، بما فيها الإنسان، إلا الله تعالى، وأن لا حق لأحد في التصرف في شأن من شؤون الناس، بل والذات، إلا بإذنه تعالى ورضاه. ومن هذا المنطلق حرم الانتحار والإضرار بالنفس.

وعلى أساس هذا فإن حق المعاقبة منحصر في الله تعالى. والأصل في هذا الباب حرمة تأديب الآخرين إلا بإذن الشرع المقدس.

قال رسول الله ﷺ: أبغضُ الناسِ إلى اللهِ رجلٌ جرَّد ظهرَ مؤمنٍ بغيرِ حقٍّ)[٢]. والتجريد المقصود هنا هو نزعَ ملابسه لضربه.

---

(١) انظر: الفصلين ٣ و ٤ من الباب الثاني.

(٢) مستدرك الوسائل، كتاب الحدود والتعزيرات، أبواب مقدمات الحدود، باب ٢٣ حرمة ضرب المسلم بغير حق، الحديث ٢١٩٢٠.

وللحؤول دون شيوع الظلم والفساد وضع الدين الإسلامي عقوبات (الحدود والتعزيرات) لبعض الجرائم. كما وضع عقوبة التعزير إذا مورست الجرائم والمعاصي علناً.

وقد روي عن الرسول الأعظم ﷺ قوله: **«يومٌ واحدٌ من سلطان عادل خيرٌ من مطر أربعين يوماً. وحدٌّ يُقام في الأرض أزكى من عبادة ستين سنة»**[١].

وكما قدمنا فإن تنفيذ الحدود والتعزيرات في ما إذا كان الفقيه مبسوط اليد لا يجوز أن يقوم تنفيذه في مستحقيه إلا من قبله أن من يأذن له في ذلك. لأن الفقيه وحده صاحب الولاية في المجتمع المؤمن والمسلم.

وأما بالنسبة للأولياء كالآباء وولي اليتيم، فلهم أن يفوضوا المعلم مثلاً أن يعاقب الولد ويؤدبه بالضرب في صور محدودة وشروط خاصة سنأتي على ذكرها لاحقاً.

شروط المعاقبة

في ما يتعلق بالمعاقبة، ولجهة الحصول على الأثر المطلوب والمشروع، يجب على المربي مراعاة سلسلة من الشروط نُص عليها في الروايات الصادرة عن المعصومين عليهم السلام:

١ ــ يجب على المربي أولاً أن يتعرّف على مستوى الاستعداد للتلقي لدى من يربيه وإمكاناته. عبر طرح أسئلة من قبيل:

هل لديه الاستعداد للتفاعل مع الموضوع الذي يرغب في طرحه عليه أو يدعوه إليه القيام؟ أم أنه يفوق قدراته؟

(١) مستدرك الوسائل، كتاب الحدود والتعزيرات، أبواب مقدمات الحدود، باب ١، الحديث ٢١٨٤٢.

هل إن الولد الذي يربيه والده أو معلّمه يستوعب بشكل جيد ما يطرحانه عليه من مسائل أخلاقية وتربوية وآداب اجتماعية أو أحكام شرعية والفضائل والرذائل ؟ أم أنه لا يستوعبها ؟ فإن لم يكن يستوعبها فسيكون معاقبته بسبب عدم مراعاته إياها عملاً غير صحيح ولا مشروع ، لأنه لن يتفهم السبب وراء معاقبته، ولن يكون ذلك سوى سبب آخر لتمرده ومشاكسته، وهو خلاف ما يسعى إليه المربي من ثمرة .

وتأسيساً على ذلك، نقول: إن معرفة الواجب الاجتماعي أو التكليف الشرعي والوعي الدقيق بشروطه ومتطلباته يعتبر شرطاً أساسياً لتفعيل دوره في المتربي.

ففي الخبر عن عبد الله بن فضالة، عن أبي عبد الله الصادق أو أبي جعفر الباقرعليه السلام _ في حديث _، قال : سمعته يقول : «**يُترك الغلام حتى يتم له سبع سنين، فإذا تم له سبع سنين قيل له : اغسل وجهك وكفيك. فإذا غسلهما ، قيل له : صل. ثم يترك حتى يتم له تسع سنين، فإذا تمت له، علِّم الوضوء وضُرب عليه ، وأمر بالصلاة وضرب عليها ، فإذا تعلم الوضوء والصلاة غفر الله لوالديه إن شاء الله**»[١].

ويقول أحد المختصين في علم النفس: . . . قد يعاقب الطفل على فعل القبيح ! ! مع أنهم من تسبب في حصوله، وذلك أنهم بذروا نبتة الشر في ذاته، ثم لما أينعت وكبرت تعالت أصواتهم متسائلين عن السبب في ذلك ؟ ![٢].

وفي هذا السياق نقرأ ما روي عن إمامنا الصادق عليه السلام من أن حق العقوبة متاح لمن سبق توجيهه وتعريفه بالحسن والقبيح وأُمر ونُهي في ذلك. وأما من

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب أعداد الفرائض، باب استحباب أمر الصبيان بالصلاة...، الحديث ٧. ج ٤ ، ص ٢٠.

(٢) تربية الطفل، لمؤلفه (جان بياجيه) الأستاذ الجامعي وعضو الأكاديمية الفرنسية. وقد عربناه عن ترجمته الفارسية (پرورش كودك) الصادرة عن انتشارات نيما، ص٣٦.

لم يحصل له ذلك، فوقع في القبيح جهلاً، فلا يعاقب[1].

٢ ــ علاوة على ما ذكرناه في الفقرة السابقة يجب على المربي أن يعفو عن من هو تحت يده إذا وقع في الخطأ للمرة الأولى أو الثانية، مع تحذيره وتخويفه من العقوبة إن وقع في ممارسته بعد ذلك. فإذا خالف يعاقب إن رأى المربي أن المصلحة تستوجب العقوبة. وقد جاء بهذا المضمون خبر عن الإمام الصادق عليه السلام.

ونص الخبر هو: ... عن عبد الله بن سنان، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الصبي يسرق؟ قال: «**يعفى عنه مرة ومرتين ويعزر في الثالثة، فان عاد قطعت أطراف أصابعه، فإن عاد قطع أسفل من ذلك**»[2].

إن المتربي إذا كان عارفاً بما يجب عليه فعله، وعارفاً بعقوبة العصيان، وسبق منه العصيان مرة أو مرتين وعُفي عنه، فلا ينبغي مسامحته والعفو عنه لو ارتكب ما يستوجب العقوبة، وسيكون للعقوبة في هذه الحالة أثرٌ إيجابيٌّ ونافعٌ. وإلا فإنه قد يرى نفسه محقاً في ما فعل، وأنه مظلوم لا يستحق ما يراد إنزاله من عقوبة به، وفي هذه الحالة سيكون لمعاقبته أثرٌ إيجابي بل سلبيٌّ وخطيرٌ وذلك واضح لا يحتاج بيانه إلى مؤونة.

٣ ــ كما تقدمت الإشارة إليه فإن الأساس في التربية هو التحبب والتودد. فعبر ذلك يمكن للتربية أن تسير وفق إيقاع سلس وسنصل إلى نريد الوصول إليه بيسر وسهولة، وسيكون أثرها أشد عمقاً وأبلغ تأثيراً.

وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أكرموا أولادكم، وأحسنوا أدبهم يغفر الله لكم**»[3].

---

(١) انظر: وسائل الشيعة، أبواب بقية الحدود الباب ٨، الحديث ٣.

(٢) م ن، أبواب حد السرقة، الباب ٢٨، الحديث ١.

(٣) مكارم الأخلاق، رضي الدين الطبرسي، ط مؤسسه الأعلمي، ص٢٢٢.

ففي هذا النص الشريف يوصينا الرسول ﷺ إلى أهمية إكرام الأولاد واحترامهم أولاً، والتربية الحسنة ثانياً. وهذا في حد نفسه يوحي بالأثر المهم للمحبة في شأن التربية، ويبين العلاقة الأكيدة بين الأمرين.

كما أنه ﷺ في نص آخر يقول: «**نظر الوالد إلى ولده حباً له عبادة**»[١].

وأما الأمام الرضا عليه السلام فيقول: «**بُرَّ ولدَك يُحسب لك برَّ والديك**»[٢].

ومن حيث المبدأ فإن قيمة الإنسان وكرامته تقتضي أن تقوم تربيته على هذا الأساس، وسيكون العقاب هو آخر ما ينبغي اعتماده كعلاج في شأن التربية.

٤ ـ للعقاب أشكال متعددة لا يصح اختصارها في (الضرب)، إذ لعل غيره أشد تأثيراً وأفضل من حيث النتائج.

فقد تخلّف ثلاثة من المسلمين زمن رسول الله ﷺ، بسبب ما وقعوا فيه من ضعفٍ وغفلة، عن المشاركة في بعض الغزوات، ولم يصاحبوا رسول الله ﷺ فيما عزم عليه. ثم إنهم، بطبيعة الحال، أسفوا وندموا على تخلفهم وما وقع منهم، فلما عاد الرسول ﷺ ذهبوا إليه معتذرين، لكنه ﷺ رأى أن من المصلحة أن لا يقبل عذرهم، حتى لا يقع غيرهم في ما وقعوا فيه، حتى تكرر منهم الاعتذار وتكرر منه ﷺ الصد. فعاقبهم بأن لم يرد عليه وقاطعهم، وأمر المسلمين بمقاطعتهم فامتثلوا أمره كافة حتى الأطفال منهم. فلم يعد أحدٌ منهم يكلمهم في شأن من الشؤون، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. مما اضطرهم إلى العيش في الضواحي.

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٦٢٦، أبواب أحكام الأولاد، الباب ٦٤، الحديث٢.

(٢) م ن، الحديث ٤.

وقد عانوا من هذه المقاطعة لمدة خمسين يوماً حتى قبل الله توبتهم ونزل فيهم قرآن يتلى. قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١].

إن القطيعة والهجر المؤقت وحرمان الطفل مما يحب والتوبيخ والتهديد والعبوس والإعراض ونحو ذلك يعد جميعاً نوعاً من العقاب أشير إليها في الروايات[٢].

وعليه، فإن (الضرب) وإن كان أحد أشكال العقاب، وهو مفيدٌ إذا استعمل في موضعه المناسب، لكن مع وجود أشكال أخرى لا ينبغي استعماله إلا في حالات محدودة وهي ما يكون التأديب منحصراً فيه. وينبغي الالتفات إلى هذا الأمر، خصوصاً في ما يتعلق بأدب الصبيان والشبان.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لنجله الإمام الحسن عليه السلام: «**ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغتَ في إيلامه؛ فإن العاقل يتعظ بالآداب والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب**»[٣].

٥ ــ يجب الالتفات إلى أن أياً من أشكال العقاب، بخاصة الجسدي منها، إنما يكون مقبولاً وصحيحاً إذا كان بداعي التربية والتأديب، ومن باب الألم الذي يعتصر قلب المربي المتصدي لمعالجة الأمراض الأمر الذي يضطره إلى استعمال السموم والحنظل لهذا الغرض النبيل. أما إذا كان بقصد التشفي والانتقام فليس هو غير نافع فحسب، بل قد ينجر إلى فقدان للسيطرة والإرادة

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١٨. وانظر في تفسيرها مجمع البيان، بيروت، دار إحياء التراث العربى، ج٥، ص٧٩، والتفاسير الأخرى وكتب السيرة.

(٢) انظر: وسائل الشيعة، ج١١، أبواب الأمر والنهي، الباب ٦ والباب ٧ و غيرها.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

إلى حد غير معقول ولا مقبول ولا مشروع، فيقع ما لا يحمد عقباه. ومعها لا يكون الضارب مربياً بل ظالماً ومعتدياً.

وفي الخبر: «**نهى رسول الله ﷺ عن الأدب عند الغضب**»[١].

٦ ــ ورد في بعض النصوص الشرعية تحديد لمقدار الضرب في العقاب، وحرمة تعديه وثبوت القصاص والضمان.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: أن أمير المؤمنين عليه السلام ألقى صبيان الكتّاب ألواحهم بين يديه ليخير [أي يفاضل] بينهم، فقال: «**أما أنها حكومة، والجور فيها كالجور في الحكم، أبلغوا معلمكم إن ضربكم فوق ثلاث ضربات في الأدب اقتصّ منه**»[٢].

وفي خبر حماد بن عثمان قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام في أدب الصبي [أي سألته عن مقدار الضرب للصبي في مقام العقاب]. قال: (**خمسة أو ستة وارفق**»[٣].

٧ – إن (الضرب) إنما يكون مفيداً إذا أعقبه المربي ببرنامج علاجي تربوي يقتلع فيه جذور الخطأ والخطيئة. فلعل هناك عوامل ضغطت على العاصي ساعدته على الوقوع في ما وقع فيه. وذلك إذا ما أريد للتربية أن تكون جذرية.

ففي الخبر عن أبي عبدالله عليه السلام، أن أمير المؤمنين عليه السلام أُتي برجل عبث بذكره، فضرب يده حتى احمرت، ثم زوَّجه من بيت المال[٤].

(١) وسائل الشيعة، ج٢٨، ص٤٨، أبواب مقدمات الحدود، الباب ٢٦، الحديث ٢.

(٢) وسائل الشيعة، أبواب بقية الحدود الباب ٨، الحديث ٢ برقم (٣٤٩٩٦).

(٣) وسائل الشيعة، أبواب بقية الحدود الباب ٨، الحديث ١، برقم (٣٤٩٩٧).

(٤) وسائل الشيعة، أبواب نكاح البهائم...، باب أن من استمنى فعليه التعزير، الحديث ١، برقم (٣٤٩٧٥).

الفصل الثامن

التكرار والتلقين

الضمير الباطني

لقد ثبت في علم النفس أن الإنسان موجود ذو بعدين :

١ – الوعي

٢ – اللاوعي

فجميع الأفكار والمشاعر والعواطف العابرة تأتي إلى صفحة النفس باختيار الإنسان وتزول باختياره أيضاً. وكذلك بالنسبة للتعقل والاستدلال العقلي الذي لم يستقر في النفس والوجدان، فإنه يبقى في حدود الجانب السطحي والظاهري. ولكنه قد يتسلل من الظاهر ليستقر في باطن النفس والروح الإنسانية ويمتزج بمكنونات الضمير الخفي ويختلط بلاوعي الإنسان ليعيد تشكيله من الداخل، لأن الباطن يتغذى من الظاهر.

لا يمكن لما استقر في وجدان الإنسان ووعيه أن يزول تماماً، وإنما هو ينتقل من موضع (الوعي) إلى آخر (اللاوعي).

قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ [طه / ٧].

وجاء عن المعصومين عليهم السلام في تفسير الآية: «**السر ما أخفيته في نفسك،**

وأخفى ما خطر في بالك ثم أُنسيتَه»[١].

ولعل الآية تشير إلى هذين النوعين الذين أشرنا إلى أنهما يستقران في النفس الإنسانية، مما أخذ به علماء النفس المعاصرون.

إن مكنونات الضمير الباطني إذا استقرت في النفس وترسخت فإنها تعمل بشكل ذاتي، وتبلغ من النفوذ حداً تهيمن فيه على أفكار وأحاسيس الإنسان حتى لا يكون للإرادة سلطان فوق سلطانه.

دور الإيمان

من المسائل التي ركَّز عليها القرآن الكريم الدرجات والمراتب التي ينالها السالك ويطويها في سلم التكامل. وعلى من يضع نفسه في دائرة حاكمية الدين أن يطوي مراحل عديدة إذا أراد الوصول إلى الكمال الحقيقي، والتي من دونها لن تتحقق النتيجة المطلوبة، وأول تلك المنازل (الإسلام).

وقد يطلق (الإسلام) ويراد به مجموع التعاليم والمعارف الدينية[٢]. كما أنه قد يطلق ويراد به درجة من درجات سلم الصعود، وبخاصة أول تلك الدرجات في حركته نحو تطبيق التعاليم والمعطيات الدينية على مستوى

---

(١) تفسير السيد عبد الله شبر.

(٢) انظر: آل عمران ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ الآيتين ١٩، ٢٠؛ والمائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية ٣ وغيرها.

الذات. قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات / ١٤].

وقد فصلت الأخبارُ الحديثَ في ذلك[١]. وفي بعضها استعراض لدرجات عشر تتفاوت حصيلة الأفراد منها[٢]. وتحدث بعضها الآخر عن أربع مراتب:

١. الإسلام ،٢. الإيمان ،٣. التقوى ،٤. اليقين[٣]

قال الإمام الخميني قدس سره:

«قد ترون أن لديه [الإنسان] علماً بالواقعيات، إلا أن يفتقد الإيمان. إنه لا يخاف من الميت ليقينه أن الميت لا يستطيع إلحاق الأذى بأحد. إن هذا الميت عندما كان على قيد الحياة وذا روح لم يكن قادراً على الإيذاء، فكيف به لما أصبح جسداً خاوياً ؟! إن أولئك الذين يخافون من الموتى إنما يخافون لأنهم يفتقدون حقيقة الإيمان، فما يملكونه إنما هو العلم فقط. إنهم عالمون بالله وبالمعاد، ولكنهم ليسوا على يقين من ذلك. إن ما أدركوه بعقولهم لم يصل إلى قلوبهم...»[٤].

إن الوعود القرآنية الأكيدة بالجنة لم تقطع إلا لأهل التقوى والحريصين عليها، قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء / ٩٠]. وهذا ما يؤكد حقيقة مفادها أن أحداً غير مصون من احتمال دخول النار حتى أولئك الحائزين لبعض درجات الإيمان إلا بالتقوى، التي هي وحدها تؤمِّن صاحبها من تقحُّم جهنم.

---

(١) انظر: أصول الكافي، ج٢، دار الكتب الإسلامية، ص٢٤ - ٥٢.

(٢) م ن، ص ٤٤-٤٥.

(٣) م ن، ص ٥٢.

(٤) الجهاد الأكبر أو جهاد النفس (بالفارسية). مؤسسه تنظيم و نشر تراث الإمام الخميني، ص٤٨.

الإيحاء الذاتي وتربية النفس

يعتبر التكرار والتلقين من أفضل الطرائق التربوية تأثيراً في الإنسان لإيصال الحقائق والمعارف إلى القلب. وإن دور التلقين لا مثيل له في هذا الباب. ولعل هذا هو السر وراء تكرار كثير من الأذكار، وإلا فإن الإقرار بوحدانية الله تعالى يكفي فيها قول (لا إله إلا الله) مرة واحدة، شريطة أن تلفظ باعتقاد وتصديق عقلي. وهكذا في سائر الأذكار.

كتب الإمام الخميني قدس سره، في رسالة لنجله الكريم سماحة السيد أحمد:

«اجتهد في أن تستقر كلمة التوحيد، التي هي وأجلّ وأعظم كلمة، في أن تستقر في وجدانك بعد عقلك، فإن نصيب العقل من ذلك إنما هو الاعتقاد الجازم البرهاني، وهذا يحصل بالبرهان. وهذه النتيجة البرهانية لن يكون لها أثرٌ يذكر إذا لم تصل إلى القلب عبر المجاهدة والتلقين...»[١].

وقال أيضاً:

«بني! ما أجمل أن تلقن نفسك وتدفع بها إلى التصديق والإذعان بحقيقة أن مدح المداحين وتمجيد الممجدين قد يودي بالإنسان إلى الهلاك، ويبعده أكثر فأكثر عن تهذيب نفسه»[٢].

إن علماء النفس يؤكدون على أن التلقين يعد واحداً من أكثر الطرائق تأثيراً في مجال مجاهدة النفس والسعي في إزالة رذيلة واستبدالها بأخرى فضيلة. وقد اعتمدوا ذلك أسلوباً في معالجة المرضى النفسيين بل والجسميين.

وقد كان العالم النفساني إميل كوئه (١٨٥٧ - ١٩٢٦) أول من استثمر

---

(١) نقطه عطف، ص ٢٤.

(٢) م ن، ص ٢١.

الإيحاء الذاتي، وفي ذلك كتب (پيرداكو): إن كوئه كان محقاً عندما قال: إن قوة التخيل حينما تنهض عبر الإرادة للمواجهة، فإن قوة التخيل التي لا يجد التردد إليها سبيلاً هي التي تنتصر في المعركة. وانطلاقاً من ذلك ذهب (كوئه) إلى ما اختاره في المجال النفسي وضمير الباطن وعموماً في الدور المحوري لقوة التخيل. كان يسعى إلى تبديل التلقين السلبي إلى عكسه الإيجابي والسليم.

كان (كوئه) يطلب من مرضاه أن يكرروا تلقينات معينة عدة مرات يومياً (وإن لم يعتقدوا بمضامينها) من قبيل: إنني أتحسن يومياً. إن مثل هذه التلقينات التي تكرر باستمرار يومياً تتسلل إلى اللاوعي (وهو قعر الأحاسيس والمشاعر) ليقع ضمير اللاوعي تحت تأثيرها، ليجد الإنسان نفسه مدفوعاً إلى اعتماد سلوكيات معقولة وطبيعية وإرادية)[١].

وكتب أيضاً: ... أجل، لا يمكن الاستهانة بالقوة المؤثرة للتلقين. وانطلاقاً من ذلك يمكن تأدية التلقينات المحددة يومياً لتحقيق النتائج المطلوبة. وهنا يطيب لي الحديث بعمق عن التلقين الذي يمكن الاستفادة بنحو فعال في معالجة الضعف الجنسي عند الرجال، والبرود الجنسي لدى النساء، والخوف، والأوهام، والاضطرابات، والحركات غير الإرادية، والعادات السيئة، وضعف الشخصية، وبعض الأمراض الجلدية والعصبية.

لذلك يمكن القول إن طريقة (إميل كوئه) المبتكرة أفادت إيجابياً في معالجة الاضطرابات والأمراض، مع بذل شيء من الجهد والوقت)[٢].

---

(١) پيرداكو، (علم النفس التربوي - معرفة الذات - بناء الذات) الترجمة الفارسية بقلم هوشيار رزم آزما، طبعة (چاپ صنوبر)، ص١٢٩.

(٢) م ن، ص ١٣٣.

وعلى هذا الأساس فإن من ابتلي بسلوك قبيح وغير مرضي يستطيع عبر التلقين معالجة نفسه. فمثلاً إن الشخص الجبان إذا حدث نفسه لعدة أيام وبتركيز شديد قائلاً: أنا شخص شجاع . . . لا أخاف أحداً)، أو يحدث البخيل نفسه بالقول: أنا شخص كريم جداً ويشغلني معاناة الآخرين)، وأمثالهما، إن هذا التلقين إذا وقع تكرر وتكثف سيترك أثراً في إضعاف أو إزالة الصفة السلبية.

وبالطبع، فإن علماء النفس يعتقدون أن التلقين إذا أريد له أن يكون مؤثراً ينبغي أن لا يشتمل على كلمات سلبية. فيختار عبارة (أنا شجاع) بدل عبارة (أنا لست جباناً)، وسيكون للتلقين بهذه الكيفية أثر أكبر وأفضل.

التلقين وتربية الآخرين

إن دور التلقين في تربية الذات والآخر وأهميته واضح، وهو لا يقل عن دور الإيحاء الذاتي.

وقد راج وشاع أن من الممكن عبر التلقين إعادة الصحة إلى المرضى، وكذلك الدفع بالأصحاء إلى المرض. وفي هذا الصدد ينبغي الالتفات إلى ما يلي:

١ – أن شخصية الملقِّن محورية في تأثر التلقين، وكلما كان الملقِّن مقبولاً لدى الملقَّن كلما كان التأثير أكثر وأشمل وأعمق.

٢ – إن تلقين الذات سيترك أثراً في النفس حتى لو كان مخالفاً لقناعة الشخص. ولكن في أحيان أخرى يجب أن يسعى الملقِّن إلى العمل على أن يحظى بقبول لدى من يريد تلقينه، كيما يطمئن أن الملقِّن بكلامه هذا يريد مصلحته. وبغير ذلك لن يكون ممكناً بل سينظر إليه على أنه شكلٌ من أشكال

الاستهزاء به، وسينتهي إلى نتيجة عكسية.

٣ – في تلقين الذات، كما مر، يجب الإشارة إلى أهمية التكرار، أما في تلقين الآخر فإنه وإن كان يجب المبادرة إليه، أما تكراره فغير ضروري. أجل، يجب انتهاز الفرص له.

مثلاً: عندما يكون الشخص جباناً ويقوم بعمل شجاع، أو يقوم الشخص الضعيف الذي لا يثق بنفسه أبداً، بعمل مهم يتطلب ثقة عالية بالنفس فإن استثمار ذلك لتقينه بالشجاعة في الأول، والثقة بالنفس في الثاني، ليهيأ الاثنان للقيام بمهمات كبرى، وسيكون لذلك أثرٌ بارز وواضحٌ لا بديل لهع في بناء الشخصية.

قال الإمام الخميني قدس سره بخصوص سر التكرار في بعض آيات القرآن الكريم:

«إنكم تعلمون أن القرآن، الذي هو معجزة ربانية، يشتمل على التكرار في مسائل عديدة. وذلك إنما حصل لغاية الترشيد والإنضاج في الواقع البشري. إن واقع تربية الإنسان يتطلب أن لا نتعامل مع ما يرتبط بتربيته بشكل عابر ونمر عليه مرور الكرام، بل لابد من التكرار والتكرار. إن التلقين لا يحصل بالمرة الواحدة. إذا أردت تربية طفلاً يجب عليك تكرار المسألة الواحدة بطرائق مختلفة وفي أوضاع متعددة. الأمر واحد لكن الأساليب تتعدد»[1].

إن هذا المربي الكبير المعاصر استطاع، من خلال استثمار قوة التلقين الهائلة، أن يصحح كثيراً من الأغاليط الشائعة التي أشاعها الاستعمار

(١) صحيفة النور، ج ٩، ص ١٥٣.

بمؤامراته، والتي هيمنت على الذهنية العامة للأمة الإسلامية، ودفعت بها إلى الرجوع إلى الخلف مسافة قرون، وتبتلى بالاستضعاف. واستطاع أن يمحو تلك القناعات السلبية من صفحة القلوب، ويُحِل محلها قيم القرآن الأصيلة وروح الاستقلال والتحرر والعزة والكرامة الإنسانية، والتسليم للحق والإيثار وحب الشهادة وأمثال ذلك.

وبسب هذا التحول الكبير على المستوى المعنوي استنهض الأمة على الطاغوت ويثور بها في وجه أكبر قوة استكبارية غاشمة على الأرض، ليسير بها نحو تذوق طعم الانتصار، وعسى أن نكون الورثة الصالحين والمناسبين لتلك القيم وأن نضع نصب أعيننا قول الحق تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد / ١١].

* * *

الفهرس

مقدمة ٥

طرق وأدوات التربية.. ٥

طرائق التربية ٨

١- المسلك الأخلاقي.. ٨

٢- المسلك العرفاني ٨

٣- المسلك الفلسفي ٩

٤- المسلك التجريبي ٩

طرق التربية وأدواتها ١١

الباب الأول

طرائق ومسالك تربية الذات

الفصل الأول

التفكر ١٥

قيمة الفكر ومنزلته.. ١٥

فئات المفكرين.. ١٥
الآفاق الصحيحة للتفكير................................ ١٨
طريقة التفكر في النفس ٢٢
أ - الطبيعة.. ٢٣
ب - الموت ٢٥
ج - التاريخ.. ٢٧
د - أحوال الناس ٣٠
هـ - عواقب الأعمال ٣٢

الفصل الثاني

المشارطة والمراقبة والمحاسبة والمعاقبة.................. ٣٥
١ - المشارطة والعزم ٣٥
٢ - المراقبة والمواظبة ٣٥
٣ - المحاسبة ٣٦
٤ - المعاقبة أو المؤاخذة ٣٦

الفصل الثالث

وضع النفس مكان الآخر ٣٩
الأنانية حجاب للواقع ٣٩
الأحكام الصائبة والدقيقة ٤٠

الفصل الرابع

إحصاء عيوب الآخرين والنقد الهدام ٤٥
إحصاء عيوب الآخرين ٤٥
الابتعاد عن الحب والبغض ٤٧

الفصل الخامس

الاستفادة من انتقادات الآخرين ٥١

الباب الثاني

تربية الآخرين

الفصل الأول

قيمة البيان ٥٧
كيفية الاستفادة من البيان..................................... ٥٩
الأول : النصح والإرشاد....................................... ٥٩
الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٦٠
العواقب المتوقعة والمحتملة ٦٤

الفصل الثاني

الاهتمام بالقيم... ٦٧
الشيطان والتلاعب بالقيم ٦٧

القرآن وضوابط القيم ٦٩
الاهتمام بالقيم في سيرة النبي صلى الله عليه وآله ٧٠
الإمام الخميني قدس سره والاهتمام بالقيم ٧١
الفرق بين المجتمع الغربي والمجتمع الإسلامي ٧٣

الفصل الثالث

احترام الشخصية ٧٥
معرفة النفس ٧٥
دور احترام الشخصية في تربية الآخرين ٧٧
القرآن واحترام الشخصية ٧٧

الفصل الرابع

التحبب ٨١
فلسفة التربية ٨١
خصائص التربية الدينية ٨٣
تأثير التحبب في التربية ٨٤
حدود إظهار المحبة بالنسبة للأبناء ٨٥
التحبب في سير المعصومين عليهم السلام ٨٦

الفصل الخامس

الطرائق غير المباشرة ٨٩
أنحاء الخطاب ٨٩
١ – التعريض ٩٠
٢ – التطبيق ٩١
٣ – عطف الخطاب إلى مخاطب آخر ٩٢
٤ – العمل ٩٣
٥ – الفن ٩٤
٦ – إظهار خلاف ما نعتقد ٩٤
طرائق أخرى ٩٥
أ – النصيحة الضمنية ٩٥
ب – انتظار الفرص المناسبة ٩٦

الباب الثالث

الطرائق المشتركة

الفصل الأول

التعبد ٩٩
العبودية ٩٩
العبادة ١٠٠
مظاهر العبادة ١٠٣

١ – الصلاة........ ١٠٣
٢ – الصوم ١٠٤
٣ – الذكر والدعاء ١٠٥
العبادة وتربية الآخرين........ ١٠٦

الفصل الثاني

التبشير والإنذار ١٠٩
الخوف والأمل ١٠٩
دور التبشير في تربية الذات........ ١١١
دور الإنذار في تربية الذات........ ١١٤
دور التبشير و الإنذار في تربية الآخرين........ ١١٧

الفصل الثالث

العمل ١٢١
الإنسان وتنوع العمل ١٢١
القرآن ودوافع العمل ١٢٢
دور العمل في إيجاد الملكات........ ١٢٤
المجاهدة وأثرها في تهذيب النفس ١٢٥
العمل بالضد وتربية الآخرين........ ١٣٠

الفصل الرابع

العبرة ١٣٣
حدود الاعتبار ١٣٣
العبرة في عالم الاعتقادات ١٣٤
العبرة وآثارها في تربية النفس ١٣٦
أنواع الاعتبار ١٣٦
شرط الاعتبار ١٤٢
العبرة وتربية الآخرين ١٤٢

الفصل الخامس

الأسوة والتأسي ١٤٥
ضرورة الأسوة ١٤٥
فلسفة الميل نحو الأسوة ١٤٧
كيفية التأسي بالأئمة عليهم السلام في كل زمان ١٤٨
الركنان الأساسيان للتأسي ١٥١
الدعوة العملية إلى الفضائل ١٥٣

الفصل السادس

الرفق والمداراة ١٥٧
ثبات الأخلاق ١٥٧

الإنسان المطلوب قرآنياً ١٥٨
دور الرفق في تثبيت الأخلاق ١٦٠
التساهل أو الرفق والمداراة ١٦٢
الرفق وتربية الآخرين ١٦٣

الفصل السابع

المؤاخذة والتأديب (المعاقبة) ١٦٥
تربية النفس ودور التأديب والمعاقبة ١٦٥
التأديب والمعاقبة وتربية الآخرين ١٦٨
شروط المعاقبة ١٦٩

الفصل الثامن

التكرار والتلقين ١٧٥
الضمير الباطني ١٧٥
دور الإيمان ١٧٦
الإيحاء الذاتي وتربية النفس ١٧٨
التلقين وتربية الآخرين ١٨٠



لبنان - بيروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس: 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - ص.ب. 25/307
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com
E-mail:daralwalaa@yahoo.com

ISBN: 978-9953-546-60-6

اسم الكتاب: طرائق التربية

اسم المؤلف: السيد مهدي الموسوي الكاشميري

ترجمة: السيد حسن النمر "الصائغ الموسوي"

الناشر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة: الأولى، بيروت ١٤٣١-٢٠١٠
